المجلة العلمية لكلية الدراسات الإسلامية والعربية
بدمياط الجديدة

المضمون وقيم التشكيل الجمالي في الرسائل الاعتذارية في عصر ملوك الطوائف بالأندلس

الدكتور

إسلام ربيع السعيد عطية

أستاذ الأدب الأندلسي المساعد بقسم اللغة العربية

كلية الآداب – جامعة دمياط

العدد السادس عشر (ديسمبر ٢٠٢٤م)

الترقيم الدولي/ (٢٣٥٦-٦٣٥٣) ISSN

الترقيم الدولي الإلكتروني/ (٢٦٣٦-٢٧١٦)

رقم الإيداع بدار الكتب / (١٨٧٦٦/ ٢٠١٣)

المضمون وقيم التشكيل الجمالي في الخطاب الاعتذاري
النثري في عصر ملوك الطوائف بالأندلس

ملخص البحث:

يقوم هذا البحث على دراسة ثماني رسائل اعتذارية لسبعة من الوزراء الكُتاب في عصر ملوك الطوائف بالأندلس هم: ابن شهيد، وابن زيدون، أبو محمد بن عبد البر، محمد بن عبد الواحد البغدادي، أبو الفضل بن حسداي الإسلامي، أبو عمرو الباجي، أبو بكر بن سعيد البطليوسي، من خلال كتاب الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة لابن بسام الشنتريني، وقد تناولت الدراسة تعريف فن الاعتذار، ومجالاته، وقيمته الأدبية والنفسية، وتطوره عبر عصور الأدب العربي، وصولًا إلى الأندلس.

وسعت الدراسة نحو تحقيق مجموعة من الأهداف، منها: التعريف بالاعتذار، ومجالاته، وقيمته الأدبية والنفسية، وتطوره عبر عصور الأدب، وتجلية العلاقة بين طرفي الخطاب الاعتذاري، ومدى تأثر المرسِل بها في إنتاج خطابه، والكشف عن المحنة والحالة النفسية التي انطلق منها الكُتَّاب في رسائلهم الاعتذارية، وأثرها في صياغة الخطاب الاعتذاري وتشكيل أغراضه، وإلقاء الضوء على مضمون الخطاب الاعتذاري، وبواعثه، واستنباط استراتيجيات الخطاب: التضامنية، والتوجيهية، والإقناعية من الرسائل الاعتذارية، بيان أثر البيئة الأندلسية في التشكيل الجمالي لرسائل الاعتذار، إبراز الخصائص الفنية والجمالية والإيقاعية للرسائل الاعتذارية.

واعتمدت هذه الدراسة على منهج ينبثق من رؤية كلية توظف مناهج عدة في تحليل رسائل الاعتذار ودراستها، والتعمق في دلالتها الموضوعية، وأبعادها الفنية، والتاريخية، والاجتماعية، والنفسية، كالمنهج الجمالي، والتاريخي، والاجتماعي، فضلًا عن المنهج النفسي الذي يقوم على استقصاء الحالة النفسية التي انطلق منها الكُتاب في تدبيج هذه الرسائل

وتناولت الدراسة في المبحث الأول منها تحليلًا لمضمون الرسالة الاعتذارية شمل: المقدمة، والمضمون، والخاتمة، وتناول المبحث الثاني منها: الخصائص الفنية والجمالية للرسائل الاعتذارية المتمثلة في: اللغة، والصورة، والإيقاع، والروافد التراثية الدينية والأدبية. مع بيان أثر البيئة الأندلسية في التشكيل الجمالي لهذه الرسائل. ولما كانت رسائل الاعتذار شكلًا من أشكال الخطاب، فإن ذلك استلزم التعريف بطرفي الخطاب، وتجلية العلاقة بينهما، ومدى تأثر المرسِل بها في إنتاج خطابه الاعتذاري، ثم سعت الدراسة نحو الكشف عن المحنة والحالة النفسية التي انطلق منها الكُتَّاب في رسائلهم الاعتذارية، وأثرها في صياغة الخطاب الاعتذاري ومضمونه وتشكيل أغراضه، واستنباط استراتيجيات الخطاب: التضامنية، والتوجيهية، والإقناعية.

الكلمات المفتاحية: النثر الأندلسي، رسائل الاعتذار، تحليل الخطاب، ملوك الطوائف، الأدب الأندلسي

Content and values of aesthetic formation in the apologetic discourse in prose in the era of the Taifa kings in Andalusia

Abstract:

Content and values of aesthetic formation in apologetic discourse
Prose in the era of the Taifa kings in Andalusia

This research is based on a study of eight apologetic letters to seven minister-writers in the era of the Taifa kings in Andalusia، through the book Al-Dhakhira by Ibn Bassam. The study addresses the definition of the art of apology، its fields، its literary and psychological value، and its development through the eras of literature، all the way to the Andalusian era.

The first section of the study addresses an analysis of the content of the apologetic letter، including the introduction، content، and conclusion. The second section addresses the artistic and aesthetic characteristics of the apologetic letters، represented by: language، imagery، rhythm، and traditional tributaries. This is accompanied by an explanation of the impact of the Andalusian environment on the aesthetic formation of these letters.

Since apology letters are a form of discourse، this required introducing the two sides of the letter، clarifying the relationship between both of them، and the extent to which the sender was influenced by it in producing his apologetic discourse. Then the study seeks to reveal the plight and psychological state which drove the writers to write their apologetic letters; and its impact on drafting the apologetic discourse، its content and the identification of its purposes; and the derivation of discourse strategies in terms of solidarity، guidance، and persuasion.

Keywords: Andalusian prose، Apology letters، Discourse analysis، Taifa kings، Andalusian literature

مقدمة

الحمد لله حمداً يستعذب الحامد مساغه، وصلى الله على من كانت أعظم آياته البلاغة، وعلى آله وصحبه ما زان حُلى الكلام مِن صيغٍ له ومَن صاغه، وبعد...

فإن عنوان هذه الدراسة " **المضمون وقيم التشكيل الجمالي في الرسائل الاعتذارية في عصر ملوك الطوائف بالأندلس**". ويتضح من العنوان أن الدراسة تروم استقصاء الرسائل الاعتذارية في الأندلس، وتحديدًا في عصر ملوك الطوائف؛ لمعرفة بواعث كتابتها، ودراسة مضمونها، وتحليل أفكارها، واستخلاص سماتها الفنية وخصائصها الجمالية.

وحدود هذه الدراسة تنحصر في: ثماني رسائل أوردها ابن بسام في كتابه الذخيرة(١) لسبعة من الوزراء الكُتاب هم: ابن شهيد، وابن زيدون، أبو محمد بن عبد البر، محمد بن عبد الواحد البغدادي، أبو الفضل بن حسداي الإسلامي، أبو عمرو الباجي، أبو بكر بن سعيد البطليوسي، عاش هؤلاء الوزراء الكُتاب في عصر ملوك الطوائف بالأندلس ٤٢٢-٤٨٨هـ.

وتهدف هذه الدراسة إلى:

١. التعريف بالاعتذار، ومجالاته، وقيمته الأدبية والنفسية، وتطوره عبر عصور الأدب.

٢. تجلية العلاقة بين طرفي الخطاب الاعتذاري، ومدى تأثر المرسِل بها في إنتاج خطابه.

٣. الكشف عن المحنة والحالة النفسية التي انطلق منها الكُتَّاب في رسائلهم الاعتذارية، وأثرها في صياغة الخطاب الاعتذاري وتشكيل أغراضه.

٤. إلقاء الضوء على مضمون الرسائل الاعتذارية، وبواعثها.

٥. استنباط استراتيجيات الخطاب: التضامنية، والتوجيهية، والإقناعية من الرسائل الاعتذارية.

٦. بيان أثر البيئة الأندلسية في التشكيل الجمالي لرسائل الاعتذار.

---

(١) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة: أبو الحسن علي بن بسام الشنتريني ت ٥٤٢هـ، تحقيق: إحسان عباس، الدار العربية للكتاب، ليبيا - تونس

٧. إبراز الخصائص الفنية والجمالية والإيقاعية للرسائل الاعتذارية.

واقتضت الدراسة الرجوع إلى مجموعة من الدراسات السابقة ذات الصلة بفن الاعتذاريات، ومن ذلك:

١. الاعتذار في الأدب العربي من أيام الجاهلية إلى نهاية القرن الرابع الهجري: أحمد حمود الغثيان، دكتوراه، كلية اللغة العربية، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ١٩٩٠م

٢. الاعتذاريات النبوية بين عصرين من الشعر: محمد أبو السعود الخياري، مجلة الوعي الإسلامي، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الكويت، سنة ٥١، عدد ٨٥٣، يناير ٢٠١٤م

٣. الاعتذار فعلًا وإنجازًا دراسة تداولية في استراتيجيات الاعتذار الضمني في الخطاب القرآني: حنان سالم محمد، مجلة جامعة بابل للعلوم الإنسانية، مج ٣٠ ع٦ سنة ٢٠٢٢م

٤. صورة الخوف في اعتذاريات النابغة الذبياني: سلامة عبد الله السويدي، حولية كلية الآداب والعلوم الاجتماعية، مجلس النشر الكويتي، حولية ٢٦، سبتمبر ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م

٥. فن الاعتذار في الشعر العباسي: ثائر سمير حسن الشمري، منشور في كتاب المؤتمر العلمي الدولي السادس للعلوم الإنسانية، جامعة قم المقدسة بالتعاون مع جامعة القاسم ١٠-١١ آيار٢٠٢٢م

٦. قصيدة الاعتذار حتى نهاية القرن الرابع الهجري: محمد محمود على العمرو، دكتوراه، كلية الآداب، جامعة اليرموك، ٢٠٠٤م

والملاحظ على الدراسات السابقة أنها لم تتجاوز القرن الرابع الهجري في المشرق، ولم تتطرق لفن الاعتذار في الأدب الأندلسي بشقيه: الشعر والنثر.

أما فيما يتعلق بالاعتذار في النثر الأندلسي، فلم أقف عليه – في حدود علمي- إلا في كتابين هما:

الأول: النثر الأدبي الأندلسي في القرن الخامس الهجري مضامينه وأشكاله[١] وقد أشار مؤلفه إلى فن الاعتذار في أربع صفحات فقط في ثنايا حديثه عن التودد والاستعطاف ضمن ما سمَّاه: النثر التوسلي.

الثاني: أدب الرسائل في الأندلس في القرن الخامس الهجري[٢]، وقد أشار مؤلفه إلى فن الاعتذار مقترنًا بالعتاب فيما لا يتجاوز صفحة واحدة فقط.

ومن ثمَّ تعدُّ هذه الدراسة جديدة في باب النثر الأندلسي؛ إذ لم أقف على دراسة تناولت رسائل الاعتذار في أي عصر من عصور الأندلس.

واعتمدت هذه الدراسة على منهج ينبثق من رؤية كلية توظف مناهج عدة في تحليل رسائل الاعتذار ودراستها، والتعمق في دلالتها الموضوعية، وأبعادها الفنية، والتاريخية، والاجتماعية، والنفسية، كالمنهج الجمالي، والتاريخي، والاجتماعي، فضلًا عن المنهج النفسي الذي يقوم على استقصاء الحالة النفسية التي انطلق منها الكُتاب في تدبيج هذه الرسائل.

هذا، وقد اقتضى موضوع البحث، ومنهجه، والهدف من دراسته، أن يكون في: مقدمة، وتمهيد، ومبحثين، على النحو التالي:

المقدمة، وفيها تعريف بموضوع البحث، وأهدافه، ومنهجه

التمهيد: الاعتذار: مفهومه، وقيمته الأدبية والنفسية

المبحث الأول: مضمون الرسائل الاعتذارية

المبحث الثاني: جماليات التشكيل الفني في الرسائل الاعتذارية

نسأل الله أن يبلُغ بنا من الحمد ما هو أهله، وأن يعلِّمنا حكمةَ الخطاب وفصلَه.

---

(١) يُنظر: النثر الأدبي الأندلسي في القرن الخامس الهجري مضامينه وأشكاله: علي بن محمد، دار الغرب الإسلامي، الأولى، ١٩٩٠م، ص٢٩١-٢٩٥

(٢) يُنظر. أدب الرسائل في الأندلس في القرن الخامس الهجري: فايز عبد النبي القيسي، دار البشير، الأولى، ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م، ص٢٨٥

تمهيد

الاعتذار مفهومه وقيمته الأدبية والنفسية

تســـتوجب هذه الدراســـةُ –بدايةً– تعريفَ الاعتذار، ومعرفة مجالاته، وقيمته الأدبية والنفسية، وتطوره عبر عصور الأدب وصولًا إلى الأندلس.

وقد عرَّف العلماء الاعتذار بتعريفات كثيرة، ومن هذه التعريفات:

قال ابن سيده: "الِاعْتِذَار: مَا أدليت بِهِ من حجّة تذْهب بهَا إِلَى إِسْقَاط الملامة" (١).

وقال الراغب الأصفهاني: "العُذْرُ: تحرّي الإنسان ما يمحو به ذنوبه. ويقال: عُذْرٌ وعُذُرٌ، وذلك على ثلاثة أضرب: إمّا أن يقول: لم أفعل، أو يقول: فعلت لأجل كذا، فيذكر ما يخرجه عن كونه مذنبًا، أو يقول: فعلت ولا أعود، ونحو ذلك من المقال. وهذا الثالث هو التّوبة، فكلّ توبة عُذْرٌ وليس كلُّ عُذْرٍ توبةً، واعْتذَرْتُ إليه: أتيت بِعُذْرٍ" (٢).

وقال الجرجاني: "الاعتذار: محو أثر الذنب" (٣).

وقال الكفوي: "الاعتذار: إِظْهَار نَدم على ذَنْب تقر بِأَن لَك فِي إِتْيَانه عذرا، فَكل تَوْبَة نَدم وَلَا عكس" (٤).

---

(١) المخصص: أبو الحسن علي بن إسماعيل بن سيده المرسي ت ٤٥٨هـ، تحقيق: خليل إبراهيم جفال، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الأولى، ١٤١٧هـ /١٩٩٦م، ج٤ص٥٣

(٢) المفردات في غريب القرآن: أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهانى ت ٥٠٢هـ، تحقيق: صفوان عدنان الداودي، دار القلم، الدار الشامية – دمشق بيروت، الأولى، ١٤١٢ هـ، ص٥٥٥

(٣) كتاب التعريفات: علي بن محمد الشريف الجرجاني ت ٨١٦هـ، دار الكتب العلمية بيروت –لبنان، الأولى ١٤٠٣هـ /١٩٨٣م، ص٣٠

(٤) الكليات "معجم في المصطلحات والفروق اللغوية" : أيوب بن موسى الكفوي ت ١٠٩٤هـ، تحقيق: عدنان درويش، ومحمد المصري، مؤسسة الرسالة – بيروت ص ٣٠٨

ومما سبق يتضح أن الاعتذار "إيساع الحيلة من المعتذِر أو المعتَذَر إليه في محو الخطأ، أو في بيان ما قد يُتوهَّم فيه التقصير، أو يتعذَّرُ فيه الإتيان بالمأمول، أو في استجلاب القبول قبل الورود على المطلوب" (١)، "ويأتي عادة لإظهار الندم على فعل حدث، أو حال وقعت، ويريد المعتذر أن يبرئ نفسه، لينجو من اللوم، أو يحاول إصلاح الحال، بتفسير أو شرح معقول لها، لكي يرجع الأمور إلى مجراها العادي" (٢)، فهو إذن "سلوك إنساني إيجابي، يدفع إليه وقوع إنسان في خطأ معين أو شعور الإنسان بسوء فهم حاصل بينه وبين طرف ثانٍ، فيقوم الأول بالدفاع عن نفسه وتبرئتها، باذلًا في ذلك قصارى جهده في التنصل من هذا الخطأ أو الذنب الذي اشتبهه، أو وُشِي به" (٣).

بينما يرى أبو الحسن العبدري أن الاعتذار لا يكون إلا من بريء، وليس ممن وقع منه الذنب والخطأ، فقال: " وليس يكاد أن يكون الاعتذار من الرجل إلى صاحبه إلا وهو بريء من الذنب الذي قُرف به، ألا تسمع قول أمية بن أبي الصلت: لا بريء فأعتذر، ولا قوي فأنتصر(٤)، فأخبر أن الاعتذار لا يكون إلا للبريء، وكذلك قول ابن الدمينة(٥):

(١) الاعتذار في القرآن الكريم دراسة موضوعية: أريج بنت إبراهيم الخميس، ماجستير، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة القصيم، ٢٠١٦م، ص ٢٠

(٢) في تاريخ الأدب الجاهلي: علي الجندي، مكتبة دار التراث، ١٤١٢هـ / ١٩٩١م، ص٤٠٥

(٣) قصيدة الاعتذار حتى نهاية القرن الرابع الهجري: محمد محمود على العمرو، دكتوراه، كلية الآداب، جامعة اليرموك، ٢٠٠٤م، ص٥

(٤) نهاية الأرب في فنون الأدب: شهاب الدين النويري ت ٧٣٣هـ، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، الأولى، ١٤٢٣ هـ، ج٣ص١٤٠

(٥) البيتان من (الطويل). عيون الأخبار: أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري ت ٢٧٦هـ، دار الكتب العلمية – بيروت، ١٤١٨ هـ، ج٤ص١٣٨

بنفسي وَأَهلي من إِذا عرَّضوا لَهُ بِبَعْض الْأَذَى لم يدر كَيفَ يُجيب
وَلم يعْتَذر عذر البريء وَلم يزل بِهِ صعقة حَتَّى يُقَال مريب"[١]

ويرتكز الموقف الاعتذاري في النصوص الاعتذارية على أربعة عناصر: حديث الاتهام، وحديث الخوف، وحديث التنصل والتبرؤ من الاتهام، وحديث الاستعطاف[٢]، وسيتضح ذلك في تحليلنا لرسائل الاعتذار.

وللاعتذار مجالات كثيرة متشعبة، بيد أننا نستطيع أن نوجزها في أربع نقاط هي:

" ١- محاولات التخلص من الخطايا والتهم السياسية، على اختلافها وتعددها.

٢- محاولات التنصل من الشبهات والظنون.

٣- محاولات التلطف والتودد طمعًا في كسب الود، وتناسي المرّ.

٤- محاولات الاستئناس بالواقع، وعدم السماح لأحد بغمز أو لمز " [٣].

وللاعتذار قيمته ومكانته في الدراسات الأدبية والنفسية، فهذا الفن من أنفس كنوز الأدب عامة، وجدير بأن يُشار إليه غرضًا مستقلًا، وليس ملحقًا بالمدح، كما جاء عند النويري، حيث قال: "رأيت جماعة من أهل الأدب قد ألحقوا الاعتذار والاستعطاف بالمدح، كالحمدوني في تذكرته، وغيره، فلذلك أضفته إليه، وجعلته من فصوله" [٤]. وكان **البحتري** من أوائل من عمدوا إلى إبراز عناوين مستقلة للاعتذار، جعلته يقف على قدم المساواة مع

---

١ كتاب العفو والاعتذار: أبو الحسن محمد بن عمران العبدري، تحقيق: عبد القدوس أبو صالح، دار البشير، عمان، الثانية، ١٤١٣هـ/١٩٩٢م، ص ٦٩

(٢) صورة الخوف في اعتذاريات النابغة الذبياني: سلامة عبد الله السويدي، حولية كلية الآداب والعلوم الاجتماعية، مجلس النشر الكويتي، حولية ٢٦، الرسالة ٢٣٥، سبتمبر ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م

(٣) الاعتذار في الأدب العربي من أيام الجاهلية إلى نهاية القرن الرابع الهجري: أحمد حمود الغثيان، دكتوراه، كلية اللغة العربية، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ١٩٩٠م، ص٩

(٤) نهاية الأرب في فنون الأدب: شهاب الدين النويري ت ٧٣٣هـ، ج٣ص٢٥٨

الفنون الأدبية الأخرى، فقال في حماسته: "باب ما قيل في الاعتذار من الفرار، باب ما قيل في الاعتذار من الجزع، باب ما قيل في الاعتذار من الشيب" (١).

أما فيما يتعلق بالنواحي النفسية، "فإن بين الاعتذار والنفس البشرية روابط عظيمة لا يمكن تجاهلها؛ لما لهذا الفن من اتصال بالإحساس والمشاعر والانفعالات؛ لكونه آتيًا من مؤثرات خارجية في الغالب، ونعني بخارجية أنها ليست من ذات المعتذِر في أغلبها. فالاعتذار إذن يصور جانبًا مهمًا من نفسية المعتذر، فهو يوحي بما يحتضنه من مخاوف وهموم، أو ما يحمله من سخط وتظلم، بالإضافة إلى ما يكشفه من شجاعة أو تخاذل... كما أن الاعتذار له دور بارز في ترجمة ما يدور بخلد المعتذِر من آمال وتطلعات" (٢).

وقد عُرف الاعتذار في التراث الأدبي منذ العصر الجاهلي(٣) متمثلًا في: اعتذارية عبيد بن الأبرص التي تقدم بها إلى الملك حُجْر؛ للعفو عن بني أسد، واعتذارية علقمة الفحل التي تقدم بها للحارث الغساني؛ لفك أسر أخيه، وقصائد أخرى لطرفة بن العبد وعمرو بن قميئة، وتُعدُّ اعتذاريات النابغة الذبياني أكثر القصائد شهرة في باب الاعتذار، حيث رحل عن بلاط المناذرة إلى بلاط الغساسنة، بعد أن أوغر خصومه صدر النعمان بن المنذر عليه، لكنه كان حريصًا على نزع فتيل الصراع بين الدولتين، وإقامة علاقة طيبة بينهما، فمدح الغساسنة؛ ليصرف خطرهم عن قبيلته؛ واعتذر للمناذرة استبقاء لودِّهم، ونالت قصائده الاعتذارية شهرة بلغت الآفاق. وعرف الاعتذار في **أدب صدر الإسلام**، ومن أبرز أمثلته: اعتذار كعب بن زهير في قصيدته المشهورة "بانت سعاد" عن هجائه لرسول الله –صلى الله عليه وسلم–، **وفي العصر الأموي** اتسعت دوافع الاعتذار وشملت أشكالًا مختلفة نابعة من تطور الحياة وصقل

(١) حماسة البحتري: أبو عُبَادة الوَليد بن عُبَيد البُحتري ت ٢٨٤ هـ، تحقيق: محمَّد إبراهيم حُوَّر، وأحمد محمد عبيد، هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث، الإمارات، ١٤٢٨ هـ / ٢٠٠٧ م، ص١٠٩، ص٢٧٣، ص٣٨٤

(٢) الاعتذار في الأدب العربي من أيام الجاهلية إلى نهاية القرن الرابع الهجري: أحمد حمود الغثيان، ص١٢

(٣) يُنظر تفصيل ذلك في: قصيدة الاعتذار حتى نهاية القرن الرابع الهجري: محمد محمود على العمرو، ص٦–ص١٣

النفس البشـــرية، كاعتذاريات الفرزدق، والطريح بن إسماعيل وغيرهما، **وفي العصـــر العباســـي** تطورت الاعتذاريات مع تطور الحياة في المجتمع العباســـي، ومن أبرز من نظموا في الاعتذار في هذا العصر: المتنبي، وأبو تمام، وعلي بن الجهم، وغيرهم.

فإذا انتقلنا من المشرق إلى **الأندلس** ألفينا هذا الفن رائجًا في الشعر والنثر، وساعد على رواجه أســـباب ســـياســـية واجتماعية، ومن ثمّ تأتي هذه الدراســـة؛ لتلقي الضـــوء على فن الاعتذاريات في النثر الأندلسي في عصر ملوك الطوائف.

المبحث الأول

مضمون الرسائل الاعتذاري

معلوم أن في كل نصٍّ نية وقصدًا، وأن وراء كل خطاب غرضًا، "قال أبرويز لكاتبه: اعلم أن دعائم المقالات أربع، إن التمس لها خامسة لم توجد، فإن نقصت منها واحدة لم تتمّ؛ وهي: ســؤالك الشــيء، وســؤالك عن الشــيء، وأمرك بالشــيء، وإخبارك عن الشــيء؛ فإذا طلبت فأسجح، وإذا سألت فأوضح، وإذا أمرت فأحكم، وإذا أخبرت فحقّق، واجمع الكثير مما تريد في القليل مما تقول" (١)، "وتحديد نوع الخطاب الذي ينتمي إليه النص يشكل إحدى القواعد الأســاســية في القراءة البلاغية، فالنوع لا يملي قيودًا مرتبطة بالطول والأســلوب والمعجم فقط، ولكنه يملي قيودًا إيديولوجية، فاختيارنا لموضــوع ما... لا يترتب عليه قول الشــيء نفســه، أو اســتخلاص النتائج نفســها. إن النوع يقيد الفكر" (٢). وهذه الدراســة تدور حول رســائل الاعتذار التي تُعدُّ شكلًا من أشكال الخطاب، مما يستلزم –بداية– معرفة المرسِل والمرسَل إليه والرسالة، حيث تتم عملية التلقي بين هذه المحاور.

(١) المرسِل (الكاتب المبدع): "هو الطرف الأول، والمنتج للخطاب، وبدونه لا يكون خطاباً؛ لأنه الطرف الأول، والذي يتجه به إلى الطرف الثاني؛ ليكمل دائرة العملية التخاطبية؛

(١) العقد الفريد: ابن عبد ربه الأندلسي ت ٣٢٨هـ، دار الكتب العلمية – بيروت، الأولى، ١٤٠٤ هـ، ج٢ص١٢٦

(٢) عن التحليل البلاغي للخطابات: محمد مشبال، مجلة فصول، مصر، العدد ٩٧، ٢٠١٦م، ص٧٩.

بقصـد إفهامه مقاصـده والتأثير فيه" (١)، فهو بذلك يمثل "الذات المحورية في إنتاج الخطاب؛ لأنه هو الذي يتلفظ به من أجل التعبير عن مقاصد معينة، وبغرض تحقيق هدف فيه. ويجسد ذاته من خلال بناء خطابه... ولا يمكن للّغة الطبيعية أن تتجسد، وتمارس دورها الحقيقي، إلا من خلال المرسل... فالمرسل هو الذي يوظف اللغة في مستوياتها المتمايزة، بتفعيلها في نسيج خطابه، ذلك التفعيل الذي ينوع طاقاتها الكامنة، ويدرك ذلك بإنتاجه خطابات... فبهذا الفعل التلفظي ينقل المرسلُ اللغة من المستوى الصوري إلى المستوى التداولي، ويغدو الخطاب عندها مؤشراً على كفاءته، بالقدرة على التكيف مع محيطه... ولا يقتصر حضور ذات المرسل على لحظة التلفظ الخطابي، بل يظل باقياً في خطابه ما بقي الخطاب ذاته، مما يشي باستمرار عملية التلفظ، كما هو الحال في الأوامر المكتوبة" (٢).

والمرسِـل في الخطاب الاعتذاري مجموعة من الوزراء الكُتاب ممن حازوا مكانة عالية ومنزلة رفيعة في المجتمع الأندلسي، وهم: أبو الوليد ابن زيدون، وابن شهيد، وأبو عمرو الباجي، ومحمد بن عبد الواحد البغدادي، وأبو الفضل ابن حسداي الإسلامي، وأبو بكر ابن سعيد البطليوسي، أبو محمد ابن عبد البر.

(٢) المرسَـل إليه: هو الطرف الثاني في الخطاب، ويمثل القاعدة الذهبية فيه سواء على مستوى إنتاجه أو تأويله، فهو المستهدف من الرسالة، والمقصود بعملية إنتاج النص، ولأجله كُتب، لذا فهو ذو سلطة تضاف إلى سلطة النص، حيث يتدخل في توجيه المرسِل وصياغة العملية الإبداعية، فهو مكوّن أساسي فيها؛ لأن كاتب النص يفكر قبل أن يكتب في المخاطَب، ويبحث عن كيفية إقناعه والتأثير فيه. ولما كان مدار الأمر في ذلك على "إفهام كل

(١) تحليل الخطاب: هند بنت حامد الحازمي، مجلة القراءة والمعرفة، مصر، العدد ١٨١، نوفمبر ٢٠١٦م، ص٤

(٢) يُنظر. استراتيجيات الخطاب مقاربة لغوية تداولية: عبد الله بن ظافر الشهري، دار الكتاب الجديد المتحدة، ليبيا، الأولى، ٢٠٠٤م ص٤٥-٤٦

قوم بمقدار طاقتهم، والحمل عليهم على أقدار منازلهم" (١)، فإن على الكاتب أن يراعي حال المخاطَب، ويعرف قدره ومنزلته السياسية أو الاجتماعية، إذ لا يكون الخطاب مؤثرًا ما لم يأخذ بعين الاعتبار مراعاة أحواله، ومعرفة خصائصه واللغة التي تناسبه، "فلكل مقال مقام، ولكل طبقة تخيّر وكلام" (٢).

والمخاطَبون في الرسائل الاعتذارية يمثلون الطبقة العليا وقمة الهرم السياسي في المجتمع الأندلسي، فهم أمراء الطوائف: أبو الحزم ابن جهور أمير قرطبة الذي خاطبه ابن زيدون، والمؤتمن بن أبي عامر الذي خاطبه ابن شهيد، والمتوكل بن الأفطس أمير بطليوس، والمأمون بن ذي النون أمير طليطلة، والمستعين بن هود حاكم سرقسطة.

ومن المعهود في دراسة الخطاب أن "الأمر لا يقتصر على دور كل من طرفي الخطاب بمعزل عن الطرف الآخر، أو بمعزل عن محيطهما، فهناك العلاقة بينهما والمعرفة المشتركة، وغير ذلك من العناصر المؤثرة. فتغدو العلاقة بين طرفي الخطاب من أبرز العناصر السياقية التي تؤثر في تحديد استراتيجية الخطاب المناسبة واختيارها، إذ يراعيها المرسل دوماً عند إنتاج خطابه، فلا يغفلها، وذلك بوصفها محدداً سياقيًا، له دوره في إنجاح عملية التواصل، وتحقيق هدف المرسل من عدمه" (٣).

ومما سبق يتضح لنا: أن المرسِل في الرسائل الاعتذارية هم من فئة من الوزراء والكُتاب، **وأن المرسَل إليه** هم فئة الحكام والأمراء.

وهذا يعني أن **العلاقة بين المرسِل والمرسَل إليه في الرسائل الاعتذارية علاقة سياسية ذات خصوصية وحساسية شديدة**، ولا شك في أن هذه العلاقة سيكون لها دور كبير في

(١) البيان والتبيين: أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ت ٢٥٥هـ، دار ومكتبة الهلال، بيروت، ١٤٢٣ هـ، ج١ص٩٥

(٢) إحكام صنعة الكلام: أبو القاسم محمد بن عبد الغفور الإشبيلي الكلاعي ق ٦هـ، تحقيق. محمد رضوان الداية، عالم الكتب، بيروت، ١٩٨٥م، ص٦٦

(٣) استراتيجيات الخطاب مقاربة لغوية تداولية: عبد الله بن ظافر الشهري، ص٤٨

إنتاج النص. وتأسيسًا على هذه العلاقة الودية بين طرفي الخطاب: "الوزراء الكُتاب والأمراء" تتشكل إحدى استراتيجيات الخطاب، وهي **الاستراتيجية التضامنية** التي "يحاول المرسل أن يجسد بها علاقته بالمرسل إليه ونوعها، وأن يعبر عن مدى احترامه لها، ورغبته في المحافظة عليها، وأن يطورها بإزالة معالم الفروق بينهما، وإجمالًا هي محاولة التقرب من المرسَل إليه وتقريبه" (١)، وهذا الأمر لم تخلُ منه رسالة من رسائل الاعتذار موضوع الدراسة.

(٣) الرسالة: اهتم النقاد ببنية الرسالة، كما اهتم الكُتاب من قبلهم بحُسن تدبيجها، فتحدث النقاد عن شكل الرسالة، وحسن تنظيمها، وما يستحب في كل جزء من أجزائها، وتحقيق التناسب بين موضوع الرسالة، وعلاقة المرسِل بالمرسَل إليه، وغير ذلك مما يتعلق بالرسالة، والحديث عن بنية الرسالة الاعتذارية يستوجب الوقوف عند: المقدمة، والمضمون، والخاتمة.

*** أولًا: المقدمة**

تمثل المقدمة محاولة لاستمالة شعور المخاطَب والتودد إليه، وإظهار الحب له، وتعين المرسِل على أن يدخل في موضوع رسالته وهو مهيَّأ لذلك نفسيًا وشعوريًا، ولهذا اهتم بها الكُتَّاب والنُّقاد، قال ابن الأثير: "وإنما خصت الابتداءات بالاختيار، لأنها أول ما يطرق السمع من الكلام؛ فإذا كان الابتداء لائقًا بالمعنى الوارد بعده توفّرت الدواعي على استماعه" (٢)، ونقل أبو هلال العسكري قول بعض الكُتاب: "أحسنوا معاشر الكتّاب الابتداءات فإنهن دلائل البيان" (٣).

---

(١) السابق، ص٢٥٨

(٢) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر: ابن الأثير الكاتب ت ٦٣٧هـ، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية للطباعة والنشر – بيروت، ١٤٢٠هـ، ج٢ص٢٢٤

(٣) كتاب الصناعتين: أبو هلال الحسن بن عبد الله العسكري ت نحو ٣٩٥هـ، تحقيق: علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العنصرية – بيروت، ١٤١٩ هـ، ج١ص٤٣١

وقد برع الأندلسيون في استهلال رسائلهم الاعتذارية؛ من أجل توجيه المتلقي إلى ما سيأتي بعد هذا الاستهلال؛ لكونه أول ما تقع عليه عين المخاطَب. واستفتح الكُتاب الأندلسيون رسائلهم الاعتذارية بما يناسب مقام المخاطَب، ويحقق المقصد الذي يسعون إليه، والغاية التي يبتغون الوصول إليها، ومن ذلك:

(١) النداء: استهل به بعض الكتاب رسائلهم الاعتذارية، وهي وسيلة يستحضر بها الكاتبُ المخاطَبَ، ويخاطبه كما لو كان حاضرًا أمامه، ومن ذلك رسالة ابن زيدون[١] التي خاطب بها أبا الحزم ابن جهور أمير قرطبة[٢]، فقال: "يا مولاي وسيدي الذي ودادي له، واعتدادي به، واعتمادي عليه، أبقاك الله ماضي حد العزم، واري زند الأمل، ثابت عهد النعمة" [٣].

إن ابن زيدون معروف بخبرته في مخاطبة ذوي السلطة من السلاطين والأمراء، ومن براعة الاستهلال لديه أن خاطب أبا الحزم ابن جهور بلسان الخضوع والاستغاثة، واصفًا إياه بـ (المولى والسيد)؛ لدلالتهما على معاني التعظيم والسيادة، وأتبع ذلك ببيان مكانة المخاطَب بالنسبة له قائلًا: يا سيدي الذي بذلت له حبي ومودتي، وقصدته دون غيره، وكنت به معدودًا

(١) أبو الوليد أحمد بن عبد الله المخزومي الأندلسي ابن زَيْدُون(٣٩٤ – ٤٦٣ هـ = ١٠٠٤ – ١٠٧١ م): وزير كاتب شاعر، من أهل قرطبة، انقطع إلى ابن جهور أحد ملوك الطوائف بالأندلس، فكان السفير بينه وبين الأندلس، فأعجبوا به. واتهمه ابن جهور بالميل الى المُعْتَضِد بن عَبّاد، فحبسه، فاستعطفه ابن زيدون برسائل عجيبة فلم يعطف، فهرب، ويلقب ابن زيدون ببحتريّ المغرب، توفي بإشبيلية سنة ٤٦٣هـ. ينظر. وفيات الأعيان ج١ص١٣٩، سير أعلام النبلاء ج١٣ص٤٠٢، الوافي بالوفيات ج٧ص٥٦، الأعلام ج١ص١٥٨

(٢) أبو الحزم بن جهور(٤٢٢-٤٣٥هـ) كان من وزراء بني عامر الذين استولوا على الحكم في أيام الحكم المستنصر الأموي، ثم آلت إليه أمور قرطبة، واستوز ابن زيدون، ثم انقلب عليه، واستعطفه ابن زيدون برسائل وقصائد، نعمت في عهده قرطبة وعمَّها الرخاءُ حتى وفاته سنة ٤٣٥هـ. يُنظر المزيد عن حياته وسياسته في: الأندلس التاريخ والحضارة والمحنة: محمد عبده حتاملة، مطابع الدستور التجارية، عمان- الأردن، ١٤٢٠هـ/٢٠٠م، ص٦٠-٦٣.

(٣) الذخيرة ق١ ج١ ص٣٤٠

ذا مكانة، ثم تبع ذلك الدعاء للمخاطَب بأن يبقيه الله نافذ الكلمة، مُنيلًا أمل الآملين، مستديم النعمة، محفوظ الحرمة.

ولابن زيدون رسالة اعتذارية أخرى خاطب بها أبا الحزم أيضًا، اعتذر فيها عن هروبه من السجن، ولا يختلف استهلالها عن الرسالة السابقة له، حيث افتتحها بقوله: "يا سيدي الذي كنت أراه أعد عددي لأبدي، وأحصن جنني من زمني، ومن أبقاه الله في أصلح الأحوال، وأفسح الآمال" (١).

إن ابن زيدون في خطابه الوزير أبا الحزم حريص على أن يبين منزلة الأمير بالنسبة له، فهو عدة زمانه، وحصنه الذي يجد فيه الأمان، ثم دعا له بطول العمر، وصلاح الحال، وتحقيق الآمال.

ونلاحظ أن هذا الاستهلال يمثل مظهرًا من مظاهر **الاستراتيجية التضامنية**(٢) إحدى استراتيجيات الخطاب، التي يتضامن من خلالها المرسِل مع المرسَل إليه، وهذا يكون مناسبًا لطبيعة الاعتذار، ورغبة الكاتب في أن ينظر إليه المخاطَب نظرة استعطاف، ويجود عليه بقبول الاعتذار.

(٢) المدح: استهل بعض الكتاب رسائله الاعتذارية بالمديح، حيث جعلوا الرسالة أشبه بقصيدة شعرية في قالب نثري، واتخذوا من المديح سبيلًا لتحقيق مآربهم وغاياتهم المادية والمعنوية، وفي مقدمة هذه الرغبات: قبول اعتذارهم، ومن هؤلاء: ابن شهيد(٣)، الذي حرص في بداية رسالته للمؤتمن على تقديم الولاء في قالب الشكر والثناء، فقال: "هذا – أيد الله

(١) الذخيرة ق١ج١ ص٤٠٨

(٢) يُنظر. استراتيجيات الخطاب مقاربة لغوية تداولية: عبد الله بن ظافر الشهري، ص٢٥٤

(٣) أحمد بن عبد الملك بن شهيد (٣٨٢ – ٤٢٦ هـ = ٩٩٢ – ١٠٣٥ م)، وزير، من كبار الأندلسيين أدباً وعلماً. مولده ووفاته بقرطبة. له شعر جيد، يهزل فيه ويجدّ: وله رسالة (التوابع والزوابع). ينظر ترجمته: جذوة المقتبس ص ١٣٣، معجم الأدباء ج١ ص ٣٥٨، وفيات الأعيان ج١ ص ١١٦، الوافي بالوفيات ج٧ ص ٩٦، الأعلام ج١ ص ١٦٣

المؤتمن – جوهر رطب، نظم بلا ثقب، غاية حسنه لو لفظه بحره على قرب، وقد كان أقل حقوق مولاي أن أقف ببابه، وأخيم بفنائه، وأهدي إليه الشكر غضاً، وأنثر عليه المدح نضاً، ولكني ممنوع، وعن إرادتي مقموع، يملكني سلطان قدير، وأمير ليس كمثله أمير" (١).

إن ابن شهيد استطاع أن يمهد الطريق بمدح المؤتمن، وذِكر فضائله ومناقبه إلى قبول اعتذاره، فوقف على بابه، وخيَّم بفنائه، وأهداه الشكر غضًّا، ونشر عليه المدح نَضًّا، فهو السلطان القدير، والأمير الذي ليس كمثله أمير.

(٣) وصف الحال: لجأ بعض الكُتاب الأندلسيين إلى استهلال رسائلهم الاعتذارية بوصف الحال التي آلوا إليها، مما دفعهم نحو كتابة هذه الرسائل. ووصف الحال يبدو مناسبًا لاستدرار عطف المخاطَب، واستمداد جوده، وأدعى لقبول اعتذار الكاتب، ومن ذلك ما كتبه أبو محمد بن عبد البر(٢)، حيث استهل رسالته بوصف حالته الوجدانية وظروفه النفسية، واستدعى صورة أبنائه مبالغةً في وصف حاله، ورغبةً في أن يعطف عليه المخاطَب عطف الماجد، ويحنو عليه حنوَّ الوالد، بعد أن يعلم بأن كاتب هذه الرسالة هو العائل الوحيد لأطفال صغار كزغب القطا، اكتحلوا بالسهاد، وناموا على شوك القتاد، الحزن عندهم مقيم، وعُوِّضوا بالبؤس بعد النعيم، فقال: "تلزمني – أيد الله مولاي – علائق لو وقف منها على السر، لتجلى له وجه العذر، من هز فضله في شأن فلان مملوكه وحبيسه بره، ليعطف عليه عطفه الماجد، ويحنو عليه حنو الوالد، على فراخ كزغب القطا، وعيال ليس منهن إلا المفجعة الحرى، دموعها تنهل كالسحاب، وضلوعها تلتهب بنار الاكتئاب، قد شملهم الفرار، ونبا بهم القرار، وعوضوا

(١) الذخيرة ق١ج١ ص٢٠٧

(٢) الوزير الكاتب أبو محمد عبد الله ابن الفقيه أبي عمر بن عبد البر النمري، ورث العلم والكتابة كابرًا عن كابر، وتنقل بين بلدان الأندلس، وفي إشبيلية اتصل بابن عباد، وحاز عنده مكانًا عليًا، ووقع بينه وبين ابن زيدون خصومة، وتغيَّر عليه ابن عباد بعد ذلك، فخرج من بلده إلى أخرى، وتوفي سنة ٤٧٤هـ. ينظر. الذخيرة ق٣ج١ص١٢٥

بالبؤس من النعيم، وأديلوا بالحزن من السرور المقيم، كأنما يتكحلون بالسهاد، وينامون على شوك القتاد" (١).

(٤) **الاستهلال بالحكمة**: استهل بعض الكتاب الأندلسيين رسائلهم الاعتذارية بالحكمة المشوبة بطابع تأملي فلسفي، وقد جاءت حكمتهم متناغمة مع مضمون الرسالة الاعتذارية وتمهيدًا لها، ومن ذلك كتبه أبو الفضل بن حسداي(٢)، الذي افتتح رسالته بالحديث عن تقلبات الدهر، وأن الدنيا تارة للإنسان وأخرى عليه، وأن مقام الإنسان في الأوطان كمقام الأرواح في الأبدان، له أجل وأمد يُستوفَى، وهو بهذا يمهد لاعتذاره للمستعين عن مفارقة بلاده دون إذنه، فقال: "الدهر – أيده الله مولاي – منتقل متقلب، والدنيا دول وعقب، ومقام القطان في الأوطان، كمقام الأرواح في الأبدان، تصحبها إلى آجال موفَّاة، عند آماد مستوفاة، فمدد الأحوال مناسبة للأعمار" (٣).

وما سبق لا يعني أن المقدمة التزم بها كُتاب الرسائل الاعتذارية في رسائلهم كلها، **فهناك رسائل خلت من المقدمات**؛ ولعل السبب في ذلك يرجع إلى خطورة الأمر، وسوء الحال التي آلت إليها نفس الكاتب، والموقف المشحون بالأسى الذي جعل الكاتب يدخل في موضوع رسالته مباشرة دون مقدمات، ومن ذلك: رسالة أبي بكر بن سيعد البطليوسي(٤) التي اعتذر فيها على لسان غيره قد فرَّ من السجن، فقال: " الأمير – أيده الله – حرك إلى ظلمي

(١) الذخيرة ق٣ج١ ص ٢١٢

(٢) الوزير الكاتب أبو الفضل بن حسداي الإسلامي، كان أبوه من بيت شرف اليهود بالأندلس، وكان ذا باع في الأدب، وهكذا كان ابنه الذي أسلم بعد ذلك، وكان ذا مكانة في عهد المقتدر بن هود حاكم سرقسطة في عهد ملوك الطوائف. ينظر الذخيرة ق٣ج١ص٤٥٧

(٣) الذخيرة ق٣ج١ ص ٤٦١

(٤) الوزير الكاتب أبو بكر بن عبد العزيز بن سعيد البطليوسي، أحد فرسان الكلام، وحملة السيوف والأقلام، كتب للمتوكل بن الأفطس، ثم لابن تاشفين من بعده، ويقال له ولأخويه (طلحة وأبي الحسن) بنو القبطرنة. ينظر. الذخيرة ق٢ج٢ص٧٥٣

فسكن، وجاءه عني فاسق بنبأ فأخذ بأدب الله تعالى وتبين، وأنا رعت فارتعت، وقرأت قوله تعالى: ﴿فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ﴾ (الشعراء: ٢١) فاتبعت، وبحق نفرت فنفرت، وأوعدني أبو قابوس ففررت: ولا قرار على زأر من الأسد(١) " (٢).

- **ثانيًا: العرض أو المضمون**

يمثل العرض أو المضمون مجالًا لبسط أفكار الرسالة ومناقشتها، وإبراز المشاعر والعواطف في جمل وتعابير تظهر دوافع الكتابة وغاية الرسالة. وقد استطاع الكُتاب الأندلسيون توظيف المضمون في رسائلهم توظيفًا جيدًا استطاعوا من خلاله ترجمة أحاسيسهم وتصوير انفعالاتهم، وشرحوا ووضحوا خفايا الموضوع الذي دفعهم نحو الاعتذار، ودافعوا عن أنفسهم، وانتصفوا لذواتهم، ووضحوا مواقفهم، وبرروا ما حدث لهم بطريقة تلاحمت فيها قوة العاطفة مع عمق الأفكار عبر لغة كتابية دقيقة فصيحة الدلالة، لها تأثير كبير مقنع؛ حتى تؤتي الرسالة أُكلها وتحقق غايتها.

وقد تضمنت رسائل الاعتذار أسباب كتابتها، ودوافع تحريرها، مع حرص الكُتاب على إظهار تعلقهم بالمخاطَب، وولائهم له، وإظهار البراهين الدالة على الولاء الكامل والطاعة التامة له، والتعلق به إجلالًا وتعظيمًا وانقيادًا؛ استمدادًا لعطفه واستدرارًا لعفوه، وقبول الاعتذار من المرسِل، وتخلل ذلك محاولة الكُتاب تبرير ما صدر عنهم من أفعال، وإظهار براءتهم، وتطهير ساحتهم مما لُصق بهم ونُسب إليهم، كما استدعوا من التاريخ بعض الذنوب التي لو ارتكبها كاتب الرسالة لاستوجب غضب المخاطَب، واستحق العقاب، ولكن ما فعلوه لا يُقارَن بهذه الذنوب، كما استدعى الكُتاب أيضًا نماذج لشخصيات تاريخية أخطأت واعتذرت، وقُبِل اعتذارهم، وعُفِي عنهم؛ لبيان أن فعل هؤلاء الكُتاب صغير يسير إذا قُورن بما

(١) شطر بيت للنابغة الذبياني يمدح فيه أبا قابوس النعمان بن المنذر ويعتذر إليه: (البسيط)

أُنبِئتُ أَنَّ أَبا قابوسَ أَوعَدَني وَلا قَرارَ عَلى زَأرٍ مِنَ الأَسَدِ

ديوان النابغة الذبياني: تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، مصر، الثانية، ص٢٦

(٢) الذخيرة ق٢ ج٢ ص٧٦٣

فعله هؤلاء، لذا فهم أولى بالعفو وأجدر بقبول العذر، وفيما يلي تفصيل لبعض مضامين الرسالة الاعتذارية.

ويتضح من قراءتنا للرسائل الاعتذارية أن الكُتاب ذكروا فيها الأسباب التي حملتهم على الاعتذار وتدبيج هذه الرسائل، ومنها:

(١) مفارقة حضرة السلطان أو الأمير دون إذنه، فمن المعلوم أن الكُتاب في عصر ملوك الطوائف حازوا مكانة كبيرة ومنزلة أثيرة لدى حكام الأندلس، وقد "استفاد الكُتاب من وجود عدة ممالك متطاحنة في هذا العصر؛ لأنه من ضُيق عليهم الخناق في مملكة ما لسبب من الأسباب، إلا ودبَّروا الخروج منها إلى مملكة أخرى، فانتعشت بذلك الحركة العلمية والأدبية، والملاحَظ أن وظيفة الكاتب تجاوزت ما هو رسمي إلى ما هو شخصي... حيث كانوا مقربين من السلاطين إلى درجة الاطلاع على أحوالهم النفسية، وما يشعرون به من غيض أو ألم أو فرح" (١).

ومن ثمَّ كان انصراف أحد الكُتاب من إمارة لأخرى أمرًا يوغر صدر الأمير، ويستوجب عداءه، مما دفع الكُتاب نحو تدبيج هذه الرسائل فور خروجهم من حضرة الأمير إلى حضرة أخرى استبقاءً لودّه، وشرحًا لأسباب خروجه، ومن ذلك: رسالة **أبي عمرو الباجي**(٢) التي قال فيها: "وأما مفارقة ذراه فيكاد الإشفاق يُصمي الجنان، ويدمي الأجفان، وينفي السلوان، وهو أمر حم واقترب، وقضاء سبق وغلب، وأنا مع انفصالي عن ذلك الكنف الجليل المأمول، والفناء العزيز الموصول، الذي عمرته في ظل الإكرام والتوجيه، ومهاد الإنعام والترفيه، غير خارج من عداد متن يتقلب فيه، وجملة من يراوحه ويغاديه، لأن فضله بي حيث كنت محيط، وأملي

(١) الرسائل الديوانية بالأندلس في القرن الخامس الهجري: جميلة مفتاح، مجلة آفاق الثقافة والتراث، مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث، سنة٢٢، عدد٨٧، ١٤٣٥هـ/٢٠١٤م، ص ١١١

(٢) أبو عمر يوسف بن جعفر المعروف بابن الباجي، من بلغاء الأندلس، أصله من باجة إحدى مدن الجانب الغربي بالأندلس، وإليها نُسب، نشأ في أسرة اشتهر أفرادها بالكتابة: الجد والأب والأخ، كتب لابن هود أحد أمراء الطوائف بالأندلس. ينظر. الذخيرة ق٢ ج١ص١٨٦

به منوط، وتشيعي له مشهور، واعترافي بعوارفه لدي مأثور، وسيعلم مولاي أني صحبت فاعتدلت، ثم فارقت وما اختللت، بل أعظمت وأجللت، وأثنيت فاحتفلت، والله الحسيب بالنيات والأعمال، الشهيد على الأقوال والأفعال" (١).

يبدو الكاتب هنا حريصًا على بيان أن فراقه حضرة مولاه ليست لعداوة نشبت بينهما، ولا رغبة عنه إلى غيره، ولكنها أقدار سبقت وغلبت، والظروف القاهرة هي التي أجبرته على فراق حضرة الأمير، ومع ذلك فهو لا يزال ذاكرًا فضله معترفًا بإنعامه، ولا يزال فردًا من حاشيته وشيعته، باقيًا على ولائه وعهده.

وكذلك فعل **أبو الفضل بن حسداي**، حيث اعتذر إلى المستعين عن خروجه من بلده دون علمه، فقال: "وقد عمرت ذلك الأفق ما امتد المهل، فلما نبا أجد الظعن والتحول، وليس للمملوك على مولاه حق يدعيه، ولا مطلب يقتضيه... فليحسن بي مولاي الظن، فإني لا ألم بنقص ولا ثلم، ولا أهم ببغض ولا وصم. ومن أملي أن ألقى مولاي يوما من الدهر، بوجه يسفر عن أساريره الزهر، صافي الفرند من صدأ يعيب، نقي الأديم من خجل يريب، وله علي من كرم العهد كالئ ورقيب" (٢).

ذكر الكاتب في رسالته أنه عُمِّر فترة طويلة وحقبة كبيرة من الزمان في كنف مولاه، وعندما همَّ بالرحيل لم يكن عليه لمولاه المستعين حق يُدَّعى ولا مطلب يُقتضَى، ولولا ظروف قاهرة وأحوال طارئة ما خرج من بلده، إذ الدنيا تتقلب، والأحوال تتغير، ولكل زمن رجال، وفي كل مضيق مجال، ثم يطالب المستعينَ بأن يحسن الظن به، فهو لا يزال على ولائه، ولم يُعرف عنه بُغض ولا نقض عهد، ولا وَصْم بعيب، وأمله أن يلقاه في قابل الأيام بوجه مسفر وقلب صافٍ.

---

(١) الذخيرة ق٢ ج١ ص١٩١

(٢) الذخيرة ق٣ ج١ ص٤٦١

وأما **أبو الفضل محمد بن عبد الواحد البغدادي**(١)، فهو وإن لم يكن أندلسيَّ المولد، فإنه استوطن الأندلس، وأقام بها حقبة من الزمن في كنف المأمون بن ذي النون(٢) حاكم طليطلة، الذي عطف عليه واعتنى به، وأجرى عليه راتبًا مقداره ستون مثقالًا في كل شهر. ولعِلم محمد بن عبد الواحد البغدادي أن انصرافه من حضرة المأمون يثير غضبه، لاسيما بعد إكرامه له وإنعامه عليه، كتب إليه هذه الرسالة معتذرًا مبررًا سبب رحيله، فقال فيها: "وكنت مررت ببلاد شموس الفضائل في آفاقها مكسوفة، وعيون العلم والآداب في عرصاتها مطروقة، وستائر الأحرار بين أهلها مهتوكة مكشوفة، وجنباتها بأنواع البلاء محفوفة، وقد نضبت في رباعها مياه الأمانة والأمان، ونبعت بين أهلها عيون الخيانة والبهتان، وضعف حبل الديانة فيهم والإيمان، فجنحوا إلى جحود النعم والكفران، وتوسعوا في مطاوعة الظلم والعدوان، فأبدلهم الله من النور في أحوالهم ظلاما، وبالحلال في مكاسبهم حراما، وخص أسعارهم بالغلاء، وجمعهم بالفناء، ولفيهم بالتشتت والجلاء... وأكبرت أن أفارق بلد الأندلس، وقد أظهر الله فيه إحدى آياته، الدالة على عظم معجزاته، الناطقة بصحة براهينه وبيناته" (٣).

يبدو الكاتب في تدبيج اعتذاره حريصًا على تبرير رحيله من الأندلس، وأن ذلك ليس لجفوة بينه وبين المأمون، ولكن سبب ذلك تغير أحوال الأندلس عما كانت عليه، فانقلبت رغبته فيها إلى رهبة منها، بعد أن كسفت شمسها، وحُفَّت جنباتها بالبلاء، وغاب فيها الأمن والإيمان، وشاع بين أهلها الخيانة والبهتان، وغير ذلك من أسباب دفعته دفعًا نحو الرحيل.

---

(١) الوزير الكاتب أبو الفضل محمد بن عبد الواحد البغدادي، أصوله من بغداد، وخرج منها بعد موت أبيه، وتنقل بين: مصر وطرابلس والقيروان إلى أن نزل الأندلس وأقام بدانية، ثم بلنسية إلى أن استجلبه إلى طليطلة المأمون بن ذي النون، وأحسن مثواه، وصار كاتبًا له، وتوفي سنة ٤٥٥هـ. الذخيرة ق٤ ج١ص٨٧

(٢) أبو الحسن يحيى بن إسماعيل بن ذي النون، لقب بالمأمون، تولى أمر طليطلة بعد أبيه المظفر، وسار على سننه في استعمال العدل، وعظُم سلطانه إلى أن نشبت الحرب بينه وبين ابن هود حاكم سرقطة تارة وبينه وبين بني الأفطس في بطليوس تارة أخرى. ت٤٦٧هـ. ينظر. الأندلس التاريخ والحضارة والمحنة، ص٤٧٩

(٣) الذخيرة ق٣ج١ ص٤١١-٤١٢

(٢) الاعتذار عن عدم اللحاق بالأمير، دأبت العادة أن يستنفر الأمير بعض خاصته للحاق به في بعض أسفاره، وربما تخلَّف عنه بعض خاصته، مما أوغر صدر الأمير وأغضبه، الأمر الذي دفع بعض الكتاب الذين تخلفوا عن اللحاق بالأمير إلى تدبيج رسائل اعتذارية بينوا فيها سبب تخلفهم وعدم لحاقهم بالأمير، ومن هؤلاء: **ابن شهيد**، الذي اعتذر إلى المؤتمن بن أبي عامر عن عدم اللحاق به؛ لتعلقه الشديد بقرطبة، وأنه لا يسعه مفارقتها، فكتب رسالة بأسلوب رقيق بدا فيه حرصه على استبقاء مودة الأمير، فقال: إن أقل حقوق مولاه عليه أن يقف ببابه، ويخيم بفنائه مادحًا له شاكرًا فضله، ولكن حبه لقرطبة وتعلقه الشديد بها حال دون ذلك، فقد وصل به حب قرطبة إلى أن صار مريضًا بحبها لا يقوى على فراقها، فكتب إليه معتذرًا قائلًا: "وقد كان أقل حقوق مولاي أن أقف ببابه، وأخيم بفنائه، وأهدي إليه الشكر غضاً، وأنثر عليه المدح نضاً، ولكني ممنوع، وعن إرادتي مقموع، يملكني سلطان قدير، وأمير ليس كمثله أمير... شيء غلب صبر الأتقياء، واستولى على عزم الأنبياء، وهو العشق، باطل يلعب بالحق، ليبين ضعف البشر وتلوح قدرة مصرف القدر؛ والذي أشكو منه أغرب الغرائب، وأعجب العجائب، بث شاغل، وبرح قاتل، وصبر يغيض، ودمع يفيض، لعجوز بخراء، سهكةٍ درداء، تدعى قرطبة" (١).

(٣) الاعتذار عن الهروب من السجن، جرت محنة السجن على بعض كُتاب الأندلس من ذوي السلطة، ثم قُدِّر لهم الفرار من السجن، ولعلمهم أن فرارهم ربما يوغر صدر أمرائهم كتبوا إليهم رسائل اعتذروا فيها عن فرارهم مبررين أسباب ذلك، ومن هؤلاء: **أبو بكر بن سعيد البطليوسي** الذي كتب اعتذاراً عن الفرار من السجن، شارحًا ظروف الفرار، فهي ليست نفاقًا ولا إباقًا، ولكنها تتلخص في الخوف والارتياع، والرغبة في السعي نحو إظهار براءته، وتطهير ساحته مما لصق به من اتهامات، فقال: "وأنا رعت فارتعت، وبحق نفرت فنفرت... ولم يكن فراري نفاقاً ولا إباقاً، إنما أدرت إظهار براءتي، وتطهير ساحتي، فأنزلت

(١) الذخيرة ق١ ج١ ص٢٠٧

قدري بجعالها، وأطفأت ناري في موضع إشعالها، وطلبت طالبتي، وقرعت باب ظالمتي، ودعوتها إلى الخصام، وأبرزتها إلى الحكام" (١).

ومن أبرز مَنْ جرت عليهم محنة السجن والاعتقال: الوزير ابن زيدون، الذي فرَّ من سجنه، ثم كتب رسالة اعتذر فيها للأمير أبي الحزم ابن جهور عن فراره، ذاكرًا دوافع فراره التي يأتي في مقدمتها أنه سُجن ظلمًا، **ولهذا كان اعتذاره مشوبًا بعتاب للأمير** لسابق عهده به، فقال: " في علمك أني سجنت مغالبة بالهوى، وهو أخو العمى، وقد نهى الله تعالى عن اتباعه، وذكر أنه مضل عن سبيله، إذ يقول: ﴿ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ (ص: ٢٦). وقال الشاعر:

إذا أنت لم تعصِ الهوى قادك الهوى إلى بعض ما فيه عليك مقال(٢)

دون تأن تدرك بعض الحاجة به، أو استثبات تؤمن مواقعة الزلل معه، بل

أوْرَدَهَا سَعْدٌ وسعد مُشْتَمِلْ ما هكَذَا تُورَدُ يا سَعْدُ الإبِلْ(٣)

... ثم سجْني إن لم آت بمدفع، أو أصدع من الحجة بمقنع؛ فاحتاط واجتهد، وتحرى واقتصد، وصالحني من هذه الفتيا على النصف، بتأخير الإعذار، وتقديم السجن، والصلح جائز بين المسلمين " (٤).

ثم ذكر ابن زيدون أنه عُومل في السجن بما لا يليق بما كان عليه في الوزارة سابقًا، حيث نُقل إلى مكان يأوي اللصوص والجُناة، فشكى إلى حابسه، فلم يأبه بشكواه، وضيق عليه، ومنع الزيارة إليه، فقال: " وكنت أول حبسي قد وضعت من السجن في موضع جرت العادة

---

(١) الذخيرة ق٢ ج٢ ص٧٦٣

(٢) البيت من (الطويل) منسوب إلى هشام بن عبد الملك في: عيون الأخبار، ج١ص٩٤

(٣) البيت من (الرجز) منسوب إلى مالك بن مرة في: مجمع الأمثال: أبو الفضل أحمد بن محمد الميداني ت ٥١٨هـ، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار المعرفة – بيروت، لبنان، ج١ص٨٦

(٤) الذخيرة ق١ ج١ ص٤٠٩-٤١١

بوضع مستوري الناس وذوي الهيئات منهم فيه، وفي الشر خيار، وبعضه أهون من بعض. فمنيت من مطالبة بعض من يأتمر الناظرون في السجن له ويسمعون منه. بما اقتضى نقلي إلى حيث الجناة المفسدون، واللصوص المقيدون. وشكوت ذلك إلى الحاكم الحابس لي في اليوم الذي مضى ذكره بمشهد من تقدم وصفه، فانتفى من الرضى به، وأظهر الامتعاض منه، وتقدم إلى الموكل بالسجن في اختيار مجلس أباين فيه من لا تليق بي ملابسته، وأَنتبدُ عمن لا ترضى لي مجالسته... واستأنف العهد في التضييق علي، ومنع من اعتاد صلتي من الوصول إليّ، فأصعدت إلى غرفة في السجن أقنعني بها مع خساستها، وأسلاني عن المصيبة بالكون فيها على مضاضتها، انفرادي من لفيف الأخلاط، ومن ضمه السجن من السلفة والسقاط... فلم أستطع صبراً، وعلمت أني قد أبليت عذراً، ولم يتق إلا أن يعذرني لبيد وكاد، ورأيت أن العاجز من لا يستبد، فالمرء يعجز لا المحالة، ولم أستجز أن أكون ثالث الأذلين: العير والوتد. وذكرت أن الفرار من الظلم والهرب مما لا يطاق من سنن المرسلين، قال الله عز وجل على لسان موسى عليه السلام ﴿فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ﴾ (الشعراء: ٢١)

لا عار لا عار في الفرار فقد فرَّ نبي الهدى إلى الغار(١)

ونظرت في مفارقة الوطن، والبين عن الأحبة، فتبين لي أن إيحاش نفسي، بإيناس أهلي، وقطعها في صلة وطني، غبن في الرأي، وخور في العزم، ووجدت الحر ينام على الثكل، ولا ينام

(١) البيت من (المنسرح) منسوب للحسين بن الحجاج في: الدر الفريد وبيت القصيد: محمد بن أيدمر المستعصمي ت ٧١٠ هـ، تحقيق: كامل سلمان الجبوري، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، الأولى، ١٤٣٦ هـ /٢٠١٥ م، ج١١ص٢١٥

على الذل، وأذنت إلى قولهم: ليس بينك وبين البلاد نسب فخيرها ما حملك. وإذا نبا بك منزل فتحول(١) " (٢).

ثم طلب ابن زيدون من ابن جهور أن يقبل اعتذاره، مُذَكّرًا إياه بما كان من فضل بينهما، فهو تلميذه، وابن جاره وشيخه، فقال: " ولعمرك يا سيدي إن ساحة العذر لتضيق، وما تكاد تتسع لك في إسلامك لتلميذك وابن جارك وشيخك الذي لم تزل متوفراً عليه، آخذاً عنه، مقتبساً منه، مع إكثارك من ذكر هذا، والاعتداد به، وادعاء الحفظ له، وقد رويت أن حسن العهد من الإيمان، وسمعت المثل: انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً(٣)، فالمرء كثير بأخيه، وألا أقل من استعمال الجد، واستغراق الجهد: فمبلغ نفس عذرها مثل منجح(٤)... ولا لوم في أمري

(١) البيت لعنترة بن شداد من (الكامل). شرح ديوان عنترة: الخطيب التبريزي، دار الكتاب العربي، بيروت، الأولى، ١٤١٢هـ-١٩٩٢م، ص١١٩، والبيت هو:

اِحذَر مَحَلَّ السَوءِ لا تَحلُل بِهِ وَإِذا نَبا بِكَ مَنزِلٌ فَتَحَوَّلِ

(٢) الذخيرة ق١ج١ ص٤١٣

(٣) جزء من حديث «انْصُرْ أَخَاكَ ظَالِمًا أَوْ مَظْلُومًا»، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، هَذَا نَنْصُرُهُ مَظْلُومًا، فَكَيْفَ نَنْصُرُهُ ظَالِمًا؟ قَالَ: «تَأْخُذُ فَوْقَ يَدَيْهِ». صحيح البخاري: أبو عبدالله محمد بن إسماعيل البخاري، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة، الأولى، ١٤٢٢هـ، (٢٤٤٤)

(٤) شطر بيت من (الطويل) منسوب لعروة بن الورد. عيون الأخبار، ج٢ ص٢١١، والبيت هو:

لِيَبلُغَ عُذراً أَو يُصيبَ رَغيبَةً وَمَبلَغُ نَفسٍ عُذرَها مِثلُ مَنجَحِ

إذا بلغ العذر(١)... ولكن من لك بأخيك كله(٢)، وأين الشريك في المر أينا(٣)، وبعد ما مر بي فالقضاء غالب، وما حم واقع، ولا حذر من قدر(٤)، وقد سبق السيف العذل(٥)، وتقدم من فعلي ما جف به القلم " (٦).

- **ثالثًا: الخاتمة**

اهتم النقاد بالختام، واشترطوا حسن الخاتمة في النص الأدبي، ونبهوا على ضرورة ارتباط الخاتمة بفكرة الرسالة ومضمونها؛ لأن الخاتمة كما قال ابن أبي الأصبع: "إنها آخر ما يبقى في الأسماع، ولأنها ربما حفظت من دون سائر الكلام في غالب الأحوال فيجب أن يجتهد في رشاقتها ونضجها وحلاوتها وجزالتها" (٧).

ونلاحظ أن خاتمة الرسائل الاعتذارية خاتمة منهجية، ذات مضمون مرتبط بالمعنى العام للرسالة، وثيق الصلة بالمقدمة والمضمون، حيث ضمَّنها الكُتاب زُبدة الأمر الذي يريدون

---

(١) شطر بيت من (الطويل)، ورد بدون نسبة في: الدر الفريد، ج٣ص٢٠١، والبيت هو:

إِذَا مَا شَفِيْتُ النَّفْسَ أَبْلَغَتُ عُذْرَهَا وَلَا لَوْمَ فِي أَمْرٍ إِذَا بَلَغَ العُذْرُ

(٢) مأخوذ من قول أبي العتاهية: (الرجز)

خَلِّي أَخٌ عَنْكَ فَلا تُخَلِّهِ مَنْ لَكَ يَومًا بِأَخِيْكَ كُلِّهْ

الدر الفريد، ج٦ص١٦٩

(٣) شطر بيت من (الخفيف)، وهو لبشار بن برد. الدر الفريد، ج٦ص١٩٣، والبيت هو:

خَيرُ إِخوانِكَ المشارِكُ في المر رِ وَأَينَ الشَريكُ في المرِّ أَينا

(٤) مثل مشهور. جمهرة الأمثال: أبو هلال الحسن بن عبد الله العسكري ت نحو ٣٩٥هـ، دار الفكر – بيروت، ج٢ص٢٣٧

(٥) السابق، ج١ص٣٧٧

(٦) الذخيرة ق١ج١ ص ٤١٣-٤١٤

(٧) تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن: ابن أبي الإصبع العدواني ت ٦٥٤هـ، تحقيق: حفني محمد شرف، منشورات الجمهورية العربية المتحدة – المجلس الأعلى للشئون الإسلامية – لجنة إحياء التراث الإسلامي، ص٦١٦

الوصول إليه، والغاية الباعثة نحو كتابة هذه الرسائل، فختموا رسائلهم ببيان ولائهم للمخاطَب ومدحه واستعطافه واستمداد عونه وعفوه، وذِكر حالهم ومآلهم؛ كي يرقَّ لهم المخاطَب، فيقبل اعتذارهم، ويعفو عنهم، ويقيل عثراتهم، ومن أمثلة ذلك: رسالة **ابن عبد البر** التي ختمها بقوله: "وأنا أمد إلى مولاي يد الضراعة، وأسأله إن لم يستوجب المذكور الرعاية لنفسه، فليرعه لأصله ومغرسه، وان لم يرق لذاته، فليرق لبنيه وبناته، وأهله وعوراته، وأذكره كلمة المأمون: لو علم الناس حرصنا على العفو لتوصلوا إلينا بالذنوب؛ وقوله: إني لألتذ بالعفو حتى أخشى أن لا أؤجر عليه. وكان الحجاج قد استأصل بالقتل أسرى ابن الأشعث حتى انتهى إلى فتى منهم فقال: أيها الأمير: لئن أسأنا في الذنوب ما أحسنت في العفو، فقال الحجاج: أف لهذه الجيف، أما كان فيهم أحد يحسن مثل هذا –! وأمسك عن القتل مع قساوته، وحقنت عنده هذه الكلمة الدم، وتغمدت الإساءة والجرم. ومولاي بصحة فطرته، وتوقد فكرته، وذكاء فهمه، واتساع حلمه، أحد من اتبع كريم الآثار، وشيد مباني الفخار، ولم أذكره على طريق الحجة، لكن على وجه الذكرى التي هي في الأكرمين ناجعة، وفي المؤمنين نافعة، كما قال الجليل، في التنزيل، ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (الذاريات ٥٥)" (١)

أجاد ابن عبد البر خَتْم رسالته بأمرين هما:

الأول: استعطاف المخاطب، وقد مدَّ يد الضراعة إليه؛ ليقبل اعتذاره، ويعفو عنه، وإن لم يعفُ عنه ويرقَّ لحاله، فليرقَّ لأبنائه وبناته.

الثاني: استدعى الكاتب مجموعة من الشواهد التاريخية المشهورة المشهودة لبعض الأمراء والولاة من أمثال: المأمون الخليفة العباسي، والحجاج بن يوسف الثقفي، حيث جنحوا في مواقف كثيرة إلى العفو وقبول الاعتذار ممن أذنبوا ثم اعتذروا، فعفوا عنهم وقبلوا اعتذارهم، وبقيت هذه المواقف ماثلة باقية في الذاكرة التاريخية، وكأنه يطالب المخاطَب أن يحذو حذو هؤلاء، وما تذكيره بهم إلا إشادة به؛ إذ الذكرى ينتفع بها المؤمنون.

(١) الذخيرة ق٣ ج١ ص٢١٣

وفي ختام رسالة أبي الفضل بن حسداي طلب من المستعين أن يجود عليه بالعفو والصفح وقبول العذر، وقد بدا أبو الفضل في طلبه واستجدائه عزيزًا كريم النفس، فلم يتذلل ولم يرق ماء وجهه، فقال: " وقد خاطبت من وثقت بوده، وأنست إلى جده، فإن جاد مولاي بالصفح، وعاد بالخلق السمح، فهو الذي يضطره إليه عالي منصبه، وسامي رتبه، وإن صرم الحبل، وجذم الأصل، فهو حكم الزمان الفاسد، ولا نعمى للشامت الحاسد، فليس بالباقي ولا الخالد، فكل عرض ذاهب مع جسمه الفاني، وذكر الفتى عمره الثاني(١) " (٢).

وختم محمد بن عبد الواحد البغدادي رسالته للمأمون بن ذي النون بأن يستر عورته، ويقيل عثرته، ويغفر زلته، فقال: "وقد كاتبت الحضرة العالية تلويحا بما ذكرته، راغبا في ما اقترحته، من تحسين عرضه بالموقف الأشرف زاده الله شرافة، وتجديد المأثرة في النيابة عني به، وستر عورة إن مرت، وإقالة عثرة إن خطرت" (٣).

وختم أبو بكر بن سعيد البطليوسي رسالته التي تضمنت الاعتذار عن الهروب من السجن بالتأكيد على براءته، وأنه ألقي في السجن بسبب وشاية امرأة وظُلمها، ولذا ختم رسالته باستعطاف المخاطب؛ كي يعيد النظر في قضيته، فهو وظالمته في بساط واحد بين يدي ملك راشد، وعضَّد الكاتب موقفه بشواهد تاريخية ظَلمت فيها المرأةُ الرجلَ، فليس الكاتبُ أولَ ضحاياها، فقال: " وها أنا معها في بساط واحد، وبين يدي ملك راشد، أرفل في الأمان، وقديماً استعيذ من شر النسوان، ومن لم يبيتن قبلي على أسف، وهن عوادي يوسف(٤)، وقد

---

(١) جزء من بيت شعر للمتنبي يمدح أبا شجاع فاتك، قال فيه: (البسيط)

ذِكرُ الفَتى عُمرُهُ الثاني وَحاجَتُهُ ما قاتَهُ وَفُضولُ العَيشِ أَشغالُ

ديوان المتنبي، دار بيروت للطباعة والنشر، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م، ص٤٩٠

(٢) الذخيرة، ق٣ج١ ص٤٦١

(٣) الذخيرة ق٣ج١ ص٤١٣

(٤) جزء من بيت لأبي تمام به يمدح أبا العباس عبد الله بن طاهر، فقال: (الطويل)

=

قال عليه السلام فيهن ما قال وأنذر وأعذر؛ ولولا أن للنساء أبناء، ويطول استقصاء الأحاديث والأنباء، لذكرت ما أحدثن من بلوى، وجلبن من شكوى، وسقت من بين دنيا وهي ظالمتي هذه إلى عصر أمنا حوا، رضي الله عنها، ولكن ترك ذلك أولى، وأنا أكفر فيه يميني وأصير مع مولاي إلى فصيلتي التي تؤويني، وأعرض عليه أمري في معرضه، وأتحقق أسوده من أبيضه " (١).

وختم ابن زيدون إحدى رسالتيه إلى ابن جهور بوصف حاله ومآله في غربته بعد فراره من سجنه، واغترابه عن وطنه، وعن أمٍّ هو واحدها، الله يرى بكاءها ويسمع نداءها حزنًا على ولدها، وشوقًا إليه، **ولعل ذِكر الأم في مقام الاعتذار يكون سبيلًا قويًا لاستعطاف ابن جهور** واستمداد عفوه؛ كي يقبل اعتذار ابن زيدون، ويعفو عنه، ولذا أتبع ابن زيدون الاستعطاف بذِكر فضائل ابن جهور وأياديه وصنائعه، وبذلك يكون **قد ختم رسالته بالمدح** كما استهلها بالمدح، فقال: " وقد هجرت الأرض التي هي ظئري، والدار التي كانت مهدي، وغبت عن أمٍ أنا واحدها، تمتد أنفاسها شوقاً إليّ،، والله يرى بكاءها، ويسمع لي على من ظلمني نداءها، فالاستجابة مضمونة للمخلص والمظلوم... ولتكن بغيتك التي تدخرها عليها كلمة تأمن، وإشارة إلى تأنيس وتسكين، تراجعني بها فأظهر بحيث أنا آمناً، وألقي العصا

أَهُنَّ عَوادي يوسُفٍ وَصَواحِبُه فَعَزماً فَقِدماً أَدرَكَ السُؤلَ طالِبُه

شرح ديوان أبي تمام: الأعلم الشنتمري ت٤٧٦هـ، تحقيق. إبراهيم نادن، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م، ج١ ص١٨٨

(١) الذخيرة ق٢ ج٢ ص٧٦٤

مطمئناً... ولك يا سيدي في انتدابك لما ندبتك إليه الفضل، والأيادي قروض[١]، والصنائع ودائع، لا يذهب العرف بين الله والناس[٢]، والتحية الطيبة والسلام المردد على سيدي " [٣].

وأما رسالة ابن زيدون الأخرى فختمها بقوله: "هاكها – أعزك الله – يبسطها الأمل، ويقبضها الخجل، لها ذنب التقصير، وحرمة الإخلاص، فهب ذنباً لحرمة، واشفع نعمة بنعمة، لتأتي الإحسان من جهاته، وتسلك إلى الفضل طرقاته، إن شاء الله" [٤]. والمعنى: هذه رسالتي إليك، ينشرها أمل في العفو ورجاء في قبول العذر، ويقبضها حياء منك، ويثنيها خجل من مقامك العالي، وقد حوت ذنب العجز عن استقصاء محامدك ومناقبك، والتزمت الإخلاص في خدمتك وولائك، فهَبْ ذنب تقصيرها لحرمة إخلاصها، وزِدْ نعمك السابقة بنعمة العفو اللاحقة؛ لتجمع الإحسان من كل نواحيه، ويدخل بك الفضل من طرقاته جميعها. وكأن ابن زيدون يريد أن يقول: تقبَّلْ مني اعتذاري إليك وتذللي جاهدًا في سبيل رضاك طامعًا في عفوك وبرِّك.

ومما سبق يتضح لنا أن الكُتاب الأندلسيون اهتموا بتدبيج رسائلهم، فبرعوا في استهلالها بالنداء، والمديح، والحكمة، ووصف الحال، وما يناسب مقام المخاطَب؛ لتوجيهه إلى ما سيأتي بعد هذا الاستهلال، ويحقق المقصد الذي يسعون إليه، والغاية التي يبتغون الوصول إليها. وضمّنوا رسائلهم أسباب كتابتها، ودوافع تحريرها، وأظهروا فيها تعلقهم بالمخاطَب، وولاءهم له؛ استمدادًا لعطفه واستدرارًا لعفوه، وتخلل ذلك محاولتهم تبرير ما صدر عنهم من أفعال،

---

(١) جزء من بيت ورد بدون نسبة في الدر الفريد وبيت القصيد، ج٢ص١٩٢، هو:

إِنَّ الأَيَادِي قروضٌ كَمَا تَدِيْنُ تُدَانُ

(٢) شطر بيت للحطيئة يقول فيه: (البسيط)

مَن يَفعَلِ الخَيرَ لا يَعدَم جَوازِيَهُ لا يَذهَبُ العُرفُ بَينَ اللهِ وَالناسِ

عيون الأخبار ج٣ص٣٠٠، الدر الفريد ج١ص٣٧٠

(٣) الذخيرة ق١ج١ص ٤١٧

(٤) الذخيرة ق١ج١ص٣٤٦

وتطهير ساحتهم مما لُصق بهم ونُسب إليهم. وختموا رسائلهم بخاتمة منهجية، وثيقة الصلة بالمقدمة والمضمون، فضمَّنوها زُبدة الأمر الذي يريدون الوصول إليه، والغاية من هذه الرسائل، فختموها بإظهار ولائهم للمخاطَب ومدحه واستعطافه واستمداد عونه وعفوه، وذِكر حالهم ومآلهم؛ كي يرقَّ لهم، فيقبل اعتذارهم، ويعفو عنهم، ويقيل عثراتهم.

المبحث الثاني

جماليات التشكيل الفني في الرسائل الاعتذارية

البحث عن الخصائص الفنية الجمالية للرسائل امتداد للبحث في مضمونها؛ ذلك لأن الوقوف على القيم الجمالية والفنية يسهم في معرفة آليات تشكيل هذا الإبداع، وطرق الأندلسيين في صياغة الأساليب التعبيرية التي ترجمت مشاعرهم، ونقلت أفكارهم، وما اختلج في ضمائرهم إلى المتلقي. ومن الخصائص الفنية والجمالية في الرسائل الاعتذارية ما يلي:

- **أولًا: اللغة**

هناك عناصر متشابكة تتداخل في الإبداع اللغوي للرسائل الاعتذارية تتمثل في: المضمون، والزمن، والمخاطَب، والناثر بما له من ثقافة وعواطف وأفكار، كل هذه العوامل مجتمعة أسهمت في الإبداع الفني الجمالي للخطاب الاعتذاري النثري في عصر ملوك الطوائف. وسوف نعرض للخصائص اللغوية من خلال ما يلي:

١- سهولة الألفاظ وجزالتها

٢- الإيجاز والإطناب

٣- البديع اللفظي

(١) سهولة الألفاظ وجزالتها

يتجسد البناء اللغوي للرسائل من الألفاظ التي تتوقف عليها القيمة الفنية الجمالية لهذه الرسائل، وإن الطابع العام الذي تتسم به الرسائل الاعتذارية هو سهولة الألفاظ ووضوحها، وبعدها عن الوحشية والغرابة والصعوبة والتعقيد، فلا نكاد نقف عند لفظ يحتاج إلى وقفة طويلة وتأمل في معناه أو رجوع إلى المعاجم إلا في نطاق ضيق جدًا، وبذلك تعطي المفردات في الرسالة الاعتذارية دلالات فنية جمالية وحضورًا مميزًا ومؤثرًا في نفس المخاطب، فابن شهيد – مثلًا– يستهل اعتذاره للمؤتمن بألفاظ سهلة واضحة مأنوسة مألوفة، فيقول: "هذا – أيد الله المؤتمن – جوهر رطب، نظم بلا ثقب، غاية حسنه لو لفظه بحره على قرب، وقد كان أقل

حقوق مولاي أن أقف ببابه، وأخيم بفنائه، وأهدي إليه الشكر غضاً، وأنثر عليه المدح نضاً، ولكني ممنوع، وعن إرادتي مقموع، يملكني سلطان قدير، وأمير ليس كمثله أمير" (١).

وسهولة ألفاظ الرسائل الاعتذارية ترجع إلى أمور كثيرة أبرزها:

أ- الغرض الذي دُبجت لأجله هذه الرسائل، وهو الاعتذار واستمداد العفو من المخاطَب، ومن ثمّ حشد الكُتّابُ ألفاظًا سهلة رقيقة مأنوسة مألوفة مناسبة للموضوع، وتفي بالغرض، بحيث تساهم هذه الألفاظ مجتمعة ومتآزرة في إقناع المخاطَب والتأثير فيه، وتعين الكاتب على شرح الغرض من الرسالة، وتبرير موقفه؛ ليحصل على استجابة سريعة من المخاطَب تتمثل في قبول اعتذاره والعفو عنه.

ب- هناك سبب عام يرجع إلى طبيعة المجتمع الأندلسي، وذوقه الأدبي في القرن الخامس الهجري، الذي اقتضى أن تكون ألفاظ النصوص الأدبية عامة موسومة بالسهولة والوضوح، بعيدة عن الصعوبة والتعقيد، ومتأثرة بطبيعة المجتمع الأندلسي، كما في اعتذار محمد بن عبد الواحد البغدادي إلى المأمون بن ذي النون، حيث جاءت ألفاظه متأثرة بطبيعة المجتمع الأندلسي، فقال: "وقد كانت رياض أخباره تزهر عندي بنوار الزكية التي هي أشهر من فلق الصباح، وتعبق بمحاسنه الرضية هي أسير في الآفاق من هبوب الرياح فتلطف بنوافر الأرواح، حتى كأنها المصافاة بين الماء والراح، فترتع الأسماع من نضارتها في مرتع خصيب، وترفل من غضارتها في ثوب من الأنس قشيب" (٢).

وثمت ضابط مهم، وهو أن سهولة ألفاظ الرسالة الاعتذارية لا تنفي جزالتها، فلسنا نعني "بالجزل من الألفاظ أن يكون وحشيا متوعّرًا عليه عنجهية البداوة، بل أعني بالجزل أن يكون متينا على عذوبته في الفم ولذاذته في السمع" (٣)، "فالجزل والمختار من الكلام فهو

(١) الذخيرة ق١ ج١ ص ٢٠٧

(٢) الذخيرة ق٣ ج١ ص٤١٠

(٣) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر: ج١ص١٧٢

الذى تعرفه العامّة إذا سمعته، ولا تستعمله فى محاوراتها" (١)، "وأجود الكلام ما يكون جزلًا سهلًا، لا ينغلق معناه، ولا يستبهم مغزاه، ولا يكون مكدودًا مستكرهًا، ومتوعّرًا متقعّرًا" (٢)، وهذه الجزالة بشروطها قد بدت واضحة في ألفاظ الرسالة الاعتذارية السابق ذكرها.

(٢) الإيجاز والإطناب

الإيجاز والإطناب معنيان متضادان، لكل واحد منهما موضعه لا يحسن فيه غيره، وإذا نظرنا إلى الرسائل الاعتذارية سنجد أنها ليست على مستوى واحد من حيث: الإيجاز والإطناب، فالخطاب الاعتذاري قد يطول أو يقصر بحسب المخاطَب والغرض، والظرف الذي كُتبت فيه الرسالة، فضلًا عن عاطفة الكاتب، وإن كان الإطناب هو الغالب على الرسائل الاعتذارية، لاسيما تلك التي تضمنت الاعتذار عن الفرار من السجن، مثل: رسالة ابن زيدون، وأبي بكر بن سعيد البطليوسي وغيرها؛ وهذا ربما يرجع إلى عاطفة الكاتب القوية المشحونة بالحزن والأسى، وإحساسه بالألم الشديد جراء ما لُصق به ونُسب إليه من اتهامات وافتراءات أودت به إلى السجن ثم فرَّ منه بعد ذلك، الأمر الذي دفعه نحو تفريغ شحناته النفسية المكبوتة في رسالته التي تعددت موضوعاتها وتشعبت أفانينها ما بين: وصف الكاتب حاله ومآله، ومدح المخاطَب، واستمداد عفوه، واستدرار عطفه، وشرح الظروف التي ألقت به السجن، وتبرير هروبه، ثم اعتذاره، وإلحاحه لقبول هذا الاعتذار.

وقد بدا الكاتب في اعتذاره حريصًا على بسط الفكرة وإطالة النفس فيها؛ وذلك في سبيل الوصول إلى غايته وتحقيق بغيته من الرسالة، وهو قبول المخاطَب اعتذاره وعفوه عنه، فضلًا عما اقتبسه الكاتب من نصوص قرآنية ونبوية، وما ضمّنه من: أشعار، وأمثال، وأقوال، وحشده للمحسنات اللفظية والبلاغية التي دفعته نحو الإسهاب والإطناب في رسالته.

---

(١) كتاب الصناعتين: ج١ص٦٤

(٢) السابق، ج١ص٦٧

وليس الإطناب في الخطاب الاعتذاري على مستوى واحد، فرسائل الاعتذار عن الهروب من السجن فيها بسط وإسهاب يفوق تلك الرسائل التي تضمنت الاعتذار عن عدم اللحاق بالمخاطَب أو الخروج من بلده دون إذنه؛ إذ لم يكن المخاطَب ناقمًا على الكاتب الذي اعتذر عن خروجه من البلد أو لم يلحق به، كنقمته على مَنْ فرَّ من السجن، كما أن عاطفة أولئك الكتاب الذي عاشوا أحرارًا ليست كعاطفة الكُتاب الذين اصطلوا بنار السجن وعاشوا مرارته، فكانت كلمتهم نفثة مصدور وتفريغًا لما بداخلهم، مما دفعهم نحو الإسهاب والإطناب وبسط القول والتوسع فيه.

(٣) البديع اللفظي

تجدر الإشارة إلى أن مذهب الصنعة ازدهر في الأندلس في القرن الخامس الهجري، ويؤيد ذلك ظهور مصنفات اعتمدت على الصنعة، مثل: أحكام صنعة الكلام للكلاعي، وتسهيل السبيل إلى علم الترسيل للحميدي، وغيرهما، تلك المصنفات أفردت للبديع مساحة كبيرة، وأولت الأساليب المسجوعة اهتمامًا بالغًا، فضلًا عن غيرها من الزخارف اللفظية، وفيما يلي بعض المحسنات البديعية اللفظية التي تضمنتها الرسائل الاعتذارية، فكان لها أثر إيقاعي بديعي جمالي دلالي معنوي.

أ. **السجع**، يعرف بأنه "اتفاق الفواصل فى الكلام المنثور فى الحرف أو فى الوزن أو فى مجموعهما" (١)، "وللسجع أثر كبير في حسن الكلام، وقيمة كبيرة في انعطاف النفس نحوه، وإصغاء الأذن إليه... ومن أهم مزايا السجع أو رعاية الفاصلة إضافة تأثيره في النفس أنه

(١) الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز: يحيى بن حمزة العلويّ ت ٧٤٥هـ، المكتبة العنصرية – بيروت، الأولى، ١٤٢٣ هـ، ج٣ ص١٢

يساعد على حفظ الكلام واختزانه في الذاكرة؛ لسهولة ترداده وتذكره، ولذلك كان حفظ الشعر أيسر من حفظ النثر، وحفظ النثر المسجوع أيسر من حفظ النثر المرسل" (١).

وجودة السجع بحسن اللفظ والبقاء على المعنى، فقد نقل بدر الدين الزركشي عن الزمخشري قوله: "أَنَّهُ لَا تَحْسُنُ الْمُحَافَظَةُ عَلَى الْفَوَاصِلِ لِمُجَرَّدِهَا إِلَّا مَعَ بَقَاءِ الْمَعَانِي عَلَى سَدَادِهَا عَلَى النَّهْجِ الَّذِي يَقْتَضِيهِ حُسْنُ النَّظْمِ وَالْتِئَامِهِ كَمَا لَا يحسن تخير الألفاظ المونقة في السمع السلسلة عَلَى اللِّسَانِ إِلَّا مَعَ مَجِيئِهَا مُنْقَادَةً لِلْمَعَانِي الصحيحة المنتظمة، فأما أن تهمل المعاني ويهتم بتحسين اللفظ وحده غير منظور فيه إلى مؤاده عَلَى بَالٍ فَلَيْسَ مِنَ الْبَلَاغَةِ فِي فَتِيلٍ أو نقير" (٢).

"وقد أجاد الأندلسيون استعمال السجع، وحذقوا مواطن الروعة والجمال فيه، لكنهم لم يتابعوا السجع المشرقي، ولم يدونوا رسائلهم بأسلوب السجع الذي شاع في المشرق في القرن الخامس الهجري، بل عنوا بالأسلوب المترسل من السجع الرشيق، ولعل مرد ذلك حرصهم على ما يحققه من تنغيم موسيقي، وإيقاع صوتي، وما يضيفه من رونق لفظي جميل... ويُلاحظ أن الكتاب الأندلسيين قد مالوا إلى الاعتدال في استخدام السجع، فلم يسرفوا في استخدامه، ولم يتفننوا في اصطياده، وقد جروا في هذا المجال مع ما يتفق وطبعهم ومقدرتهم الثقافية، وما لهم من كفاءة في تحسين المعنى أو ابتكاره أو توليده في أثواب جديدة في الصياغة، وهذا ما يدل على أن أساليب الكُتاب كانت أقرب إلى العفو والطبع، حيث ورد السجع في رسائلهم عفو الخاطر، غير متكلَّف، قصير الفقرات" (٣).

---

(١) دراسة بلاغية في السجع والفاصلة القرآنية: عبد الجواد محمد طبق، دار الأرقم للطباعة والنشر، الأولى، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م، ص١١-١٢

(٢) البرهان في علوم القرآن: بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي ت ٧٩٤هـ، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الأولى، ١٣٧٦ هـ / ١٩٥٧ م، دار إحياء الكتب العربية عيسى البابى الحلبي، ج١ص٧٢

(٣) أدب الرسائل في الأندلس في القرن الخامس الهجري: فايز عبد النبي القيسي، ص٣٤٧

ومن أمثلة السجع في الرسائل الاعتذارية: ما جاء في رسالة أبي عمرو الباجي التي اعتذر فيها إلى ابن هود بعد خروجه عنه، قال فيها: "وأما مفارقة ذراه، فيكاد الإشفاق يصمي الجنان، ويدمي الأجفان، وينفي السلوان، وهو أمر حم واقترب، وقضاء سبق وغلب... وسيعلم مولاي أني صحبت فاعتدلت، ثم فاقرت وما اختللت، بل أعظمت وأجللت، وأثنيت فاحتفلت، والله الحسيب بالنيات والأعمال، الشهيد على الأقوال والأفعال" (١).

يبدو الكاتب هنا حريصًا على جذب سمع المخاطَب والتأثير فيه والاستحواذ عيله؛ ليصغي إليه، ومن ثم استعان بالسجع القائم على تنوع الفواصل وقصر الفقرات بما يتلاءم مع المعنى؛ ليضفي على أسلوب الخطاب الاعتذاري نغمة زائدة تُكسب العبارة جرسًا موسيقيًا، ترتاح إليه النفس وتطرب له الأذن، مما يعين الكاتبَ على التعبير عن عواطفه وعرض فكرته، فضلًا عما يحققه النغم المنبعث من السجع من جمالية فنية إيقاعية أخَّاذة تتضافر مع المعنى؛ لتدفع المخاطَب نحو الانسجام مع مضمون الرسالة، واستيعاب فكرتها والغرض منها، مما يكون باعثًا نحو الاستجابة للمرسِل وتحقيق غايته وقبول اعتذاره.

ب. الازدواج، قال عنه أبو هلال العسكري: "واعلم أنّ الذى يلزمك فى تأليف الرسائل والخطب هو أن تجعلها مزدوجة فقط، ولا يلزمك فيها السّجع؛ فإن جعلتها مسجوعة كان أحسن، ما لم يكن فى سجعك استكراه وتنافر وتعقيد" (٢)، وقال: "لا يحسن منثور الكلام ولا يحلو حتى يكون مزدوجا، ولا تكاد تجد لبليغ كلاما يخلو من الازدواج، ولو استغنى كلام عن الازدواج لكان القرآن؛ لأنه فى نظمه خارج من كلام الخلق، وقد كثر الازدواج فيه حتى حصل فى أوساط الآيات فضلا عما تزاوج فى الفواصل منه" (٣).

(١) الذخيرة ق٢ج١ ص١٩١

(٢) كتاب الصناعتين، ج١ص١٥٩

(٣) السابق، ج١ص٢٦٠

"ولقد كان الازدواج من المحسنات اللفظية التي استخدمها الكُتاب الأندلسيون؛ لتنميق رسائلهم وتحسينها، وقد جاء اهتمامهم بها ملازمًا للاهتمام بالسجع؛ لأنه ذو علاقة وثيقة به، بل هو قسم من أقسامه، إذ لم يكن الكُتاب يلتزمون حرفًا واحدًا في جميل الفواصل والعبارات، وإنما كانوا ينوعون بين حروفها، فإذا اقتصر هذا التنويع على سجعتين اثنتين تكونان على حرف واحد كان ذلك ازدواجًا" (١)، "وصور الازدواج التي ظهرت في أدب الرسائل في الأندلس في القرن الخامس الهجري، وردت موافقة للطبع، ومناسبة للذوق ومساهمة في إبراز المعنى بصورة جميلة مؤثرة، وقد اختلط فن الازدواج بفن السجع في كثير من المواضع حتى طغى الأخير عليه؛ وذلك للعلاقة القوية بينهما" (٢)، ومن أمثلته في رسالة ابن شهيد: "وقد كان أقل حقوق مولاي أن أقف ببابه، وأخيم بفنائه، وأهدي إليه الشكر غضاً، وأنثر عليه المدح نضاً، ولكني ممنوع، وعن إرادتي مقموع، يملكني سلطان قدير، وأمير ليس كمثله أمير" (٣).

استطاع ابن شهيد من خلال ازدواج الفواصل: (غضًّا، نضًّا) (ممنوع، مقموع) (قدير، أمير) أن يكسب الألفاظ نغمًا وجرسًا موسيقيًا يعبر عن قوة الإحساس بمعانيها، ويجعلها أكثر تأثيرًا وأقوى إيقاعًا يرقى بالنص جماليًا وفنيًا ومعنويًا، مما يجعل المعنى أو الفكرة والغرض من الرسالة أكثر قبولًا ورسوخًا في ذهن المخاطَب، وأدعى لاستجابته لطلب المرسِل.

ج. **الجناس**، هو "اتفاق اللفظين فى وجه من الوجوه مع اختلاف معانيهما، وهو عظيم الموقع فى البلاغة، جليل القدر فى الفصاحة، ولولا ذلك لما أنزل الله كتابه المجيد على هذا

(١) أدب الرسائل في الأندلس في القرن الخامس الهجري: فايز عبد النبي القيسي، ص٣٥٢

(٢) السابق، ص٣٥٥

(٣) الذخيرة ق١ ج١ ص٢٠٧

الأسلوب، واختاره له كغيره من سائر أساليب الفصاحة" (١)، "وهو من ألطف مجارى الكلام ومن محاسن مداخله، وهو من الكلام كالغرة فى وجه الفرس" (٢).

" وإذا أنعمنا النظر في جمال الجناس حين يقع جميلًا، أمكن أن نرجعه إلى أسباب منها:

أ– تناسب الألفاظ في الصورة كلها أو بعضها... واقتران الأشباه والنظائر بعضها ببعض تميل إليه النفوس بالفطرة، وتأنس به وتغتبط، ويطمئن إليه الذوق السليم ويسكن؛ لأنه نظام وانسجام وائتلاف، وهي أشياء مركوز حبها في الغرائز؛ لخلعها على النفوس راحة وبشاشة وهدوءًا وقرارًا.

ب– التجاوب الموسيقي الصادر من تماثل الكلمات تماثلًا كاملًا أو ناقصًا، فيطرب الأذن ويونق النفس، ويهز أوتار القلب " (٣).

ومن أمثلة الجناس في الرسائل الاعتذارية: ما جاء في رسالة ابن شهيد السالف ذِكرها بين (إليه، عليه) (غضًّا، نضًّا) (ممنوع، مقموع) (يغيض، يفيض).

ويتضح الجناس أكثر فيما جاء في رسالة أبي الفضل بن حسداي التي اعتذر فيها إلى المستعين عن خروجه عنه، فقال فيها: "ولكل مقام مقال، ولكل زمان رجال، وفي كل مضيق مجال... وقد خاطبت من وثقت بوده، وأنست إلى جده، فإن جاد مولاي بالصفح، وعاد بالخلق السمح، فهو الذي يضطره إليه عالي منصبه، وسامي رتبه، وإن صرم الحبل، وجذم الأصل، فهو حكم الزمان الفاسد، ولا نعمى للشامت الحاسد، فليس بالباقي ولا الخالد، فكل عرض ذاهب مع جسمه الفاني، و" ذكر الفتى عمره الثاني "وان استحل حرام، من دار أورثها كرام" (٤).

---

(١) الطراز، ج٣ص١٩٦

(٢) السابق، ج٢ص١٨٥

(٣) فن الجناس "بلاغة– أدب– نقد" : علي الجندي، دار الفكر العربي، ص٢٩

(٤) الذخيرة ق٣ج١ص ٤٦١

نلاحظ أن الرسالة حافلة بالجناس الناقص بين (رجال، مجال) (الدول، الأول) (ودّه، جدّه) (الصفح، السمح) (الفاسد، الحاسد) (الفاني، الثاني) (حرام، كرام)، ومن المعلوم أن الجناس بنية قائمة على التكرار والتشابه بين الكلمات، ولذلك فإن التناغم الإيقاعي في الجناس أوسع وأشمل من السجع، ومن ثم استعان به الكُتاب الأندلسيون في رسائلهم الاعتذارية؛ لأن التجاوب والتناغم الموسيقي الصادر عن تناسب الكلمات وتماثل الحروف يطرب أذن المخاطب، ويجعل فيه ميلًا إلى الإصغاء وتشوقًا إلى فكرة الرسالة ومضمونها.

٤ – ثانيًا: الخيال والصورة الفنية

الصورة أساس كل عمل أدبي، فهي تسعى نحو رسم تجربة الأديب الشعورية والمواقف المختلفة التي يعيشها، مع بلورة رؤاه، وتعميق إحساسه بالأشياء من حوله، ويعد الخيال أبرز وسائل الكاتب في تكوين الصورة البيانية المعبرة عن تجاربه وعواطفه.

والصورة التي تخلَّقت في جسد النص الأدبي لابد أن تسهم في تحقيق هدف الكاتب من رسالته، وتعينه في الوصول إلى بغيته، ومن هنا نستطيع الوقوف على بعض الأمثلة التي تبين لنا كيف استطاع الكُتاب الأندلسيون توظيف الخيال والصورة في غرض الاعتذار، ومن أمثلة ذلك: ما جاء في اعتذار ابن زيدون لابن جهور مصدّرًا ذلك بقوله: "أبقاك الله ماضي حد العزم، واري زند الأمل، ثابت عهد النعمة. إن سلبتني – أعزك الله – لباس إنعامك، وعطلتني من حلي إيناسك، وغضضت عني طرف حمايتك، بعد أن نظر الأعمى إلى تأميلي لك، وسمع ثنائي عليك، وأحس الجماد بإسنادي إليك، فلا غرو فقد يغص بالماء شاربه، ويقتل الدواء المستشفي به، ويؤتى الحذر من مأمنه، وإني لأتجلد فأقول: هل أنا إلا يد أدماها سوارها، وجبين عضه إكليله، ومشرفي ألصقه بالأرض صاقله، وسمهري عرضه على النار مثقفة – والعتب محمود عواقبه، والنبوة غمرة ثم تنجلي، والنكبة سحابة صيفٍ عن قريب تقشع" (١).

(١) الذخيرة ق١ ج١ ص٣٤٠

هذه الفقرة من رسالة ابن زيدون حافلة بالخيال المتمثل في الصور البيانية، التي استطاع ابن زيدون بمهارة الكاتب الأديب والشاعر الأريب أن يوظفها توظيفًا جيدًا في خدمة الغرض الذي يرنو إليه في هذه الرسالة، التي ابتدأها بمدح ابن جهور استمدادًا لعفوه، فوصفه بقوله: (ماضي حد العزم، واري زند الأمل)، حيث استطاع من خلال **الاستعارة** وما تحمله من **تجسيد** أن يشبه عزم ابن جهور وقوته بالسيف الحاد المضَّاء، وقوله: (واري زند الأمل)، تشبيه للأمل بالزند المتوقد نارًا لا تنطفئ، فالأمير ابن جهور مرجوّ مأمول يرجوه الناس ويأملون فيما عنده من خير لا ينقطع، وهذه المعاني التي تضمنتها الاستعارة تمهد للغاية من هذه الرسالة، وهي الاعتذار.

ثم وظف الصورة البيانية توظيفًا جيدًا في سياق وصف حاله ومآله إثر الجفوة والفجوة التي آلت إليها علاقته بابن جهور في قوله: (إن سلبتني – أعزك الله – لباس إنعامك، وعطلتني من حلي إيناسك، وغضضت عني طرف حمايتك). إن التعبير الحقيقي قد لا يسعف الكاتب في صوف حاله كما وصفته الاستعارة بما لها من تجسيم وتجسيد، حيث جعل إنعام ابن جهور عليه لباسًا فضفاضًا، وإيناسه به زينة وحُليًّا، وحفظ كرامته كفاً صائلة، واحتماءه به عينًا مبصرة، فلما حدثت الجفوة بينهما حرمه من ذلك كله، إذ أبدله من لباسه سلبًا، ومن إيناسه وحشة، ومن حمايته ضياعًا.

ثم استعان الكاتب بالصورة **التشبيهية البليغة** في وصف حاله في السجن، وقد أحسن في ذلك وأجاد في سبيل استعطاف المخاطب؛ ليعفو عنه ويقبل عذره، فقال: (وإني لأتجلد فأقول: هل أنا إلا يد أدماها سوارها، وجبين عضه إكليله، ومشرفي ألصقه بالأرض صاقله، وسمهري عرضه على النار مثقفة – والعتب محمود عواقبه، والنبوة غمرة ثم تنجلي، والنكبة سحابة صيفٍ عن قريب تقشع).

ابن زيدون ضرب لنفسه مثلًا، وهو بهذه الحال في السجن؛ ليبين أن الضرر وقع به من حيث يريد النفع، فشبه نفسه بيد ضاق عليها السوار حتى أدماها، وبإكليل ضاق حتى عضَّ

جبين لابسه، وبسيف مشرفي أُلصق بالتراب ومكانه أن يُحمَّل بالحمائل، وبرمح سمهريَّ وضع على النار، ومكانه في السجن لا يليق بالمكانة التي عليها والتي يستحقها، ولكن ابن زيدون لا يزال يأمل الخير من ابن جهور وإن تأخر عليه، فشبه نكبته بسحابة صيف سرعان ما تنقشع.

ونلاحظ من السياق السابق أن الصورة في الخطاب الاعتذاري يمدها روافد متنوعة، منها: روافد تتعلق بالبيئة الأندلسية، وما فيها من **أدوات الزينة**: السوار، الإكليل، **والأدوات العسكرية**: السيف المشرقي، والرمح السمهري، فضلًا عن **الرافد الأدبي**، فقول ابن زيدون: (هل أنا إلا يد أدماها سوارها) يعود بنا إلى قول أبي الطيب المتنبي في سيف الدولة: (الوافر)

بَنو كَعبٍ وَما أَثَّرتَ فيهِم يَدٌ لَم يُدمِها إِلّا السِوارُ(١)

وهناك رافد من روافد الصورة في الخطاب الاعتذاري الأندلسي، وهو الطبيعة الأندلسية الخلَّابة، وقد يبدو ذلك واضحًا أكثر في رسالة محمد بن عبد الواحد البغدادي التي اعتذر فيها إلى المأمون بن ذي النون، حيث استهلها بمدحه، وحشد في سبيل ذلك مظاهر الطبيعة الصامتة والصائتة، فقال: "وقد كانت رياض أخباره تزهر عندي بنوار الزكية التي هي أشهر من فلق الصباح، وتعبق بمحاسنه الرضية هي أسير في الآفاق من هبوب الرياح فتلطف بنوافر الأرواح، حتى كأنها المصافاة بين الماء والراح، فترتع الأسماع من نضارتها في مرتع خصيب، وترفل من غضارتها في ثوب من الأنس قشيب" (٢).

٥- ثالثًا: الروافد التراثية في الخطاب الاعتذاري

إن التراث هو ما ترسب في ذاكرة الإنسان، واستطاع الأدباء أن يظهروه في نتاجهم الأدبي في مختلف العصور، مع ملاحظة أنه ليس كل قديم يعد تراثاً، إنما التراث الذي ينبغي تمثله واستدعاؤه هو التراث الماضي الفعال المؤثر في الحاضر والمستقبل. والأديب ينبغي أن يكون وثيق الصلة بتراثه، ذا حظ وافر من الثقافة والاطلاع؛ لأن النص الأدبي انعكاس لفكر

(١) شرح ديوان المتنبي: عبد الرحمن البرقوقي، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ١٤٠٧هـ/١٩٨٦م، ج٢ص٢١٥
(٢) الذخيرة ق٣ ج١ ص٤١٠

مبدعه وثقافته، ومن ثم عني النقاد والأدباء بما ينبغي أن يكون عليه المشـــتغلون بالأدب من ثقافة واطلاع، ذلك لأن الارتباط بالتراث له مردوده المثمر على الحياة الأدبية، فهو يجنب الأديب الزلل، وينير نفسه، فيرى من خلاله الطريق ويجنبه العثرات في تطوره الأدبي، وإضافاته المتجددة، كما أنه يمثل دعامة تاريخية وقومية يعتز بها وينتمي إليها، فدواعي الارتباط به، والاحتماء به أقوى وأشـــد من دعاوي الانفصـــال عنه، كما أن الاتكاء على التراث يعطي الأدب مشروعية الاستمرار، ويكسب النص غنى وخصوبة وثراء، ويخرج التجربة من الذاتية إلى الموضوعية.

ولقد كان للتراث الديني والأدبي والتاريخي حضور بارز وفعال في النص الأدبي الأندلسي، حيث اختزنت عقلية الأندلسي هذا التراث واختزلته؛ لتغذية مضامين النص الأندلسي وإثرائه، مما يدل على أن الذاكرة الأندلســـية قد كانت وعاءً متميزاً للثقافة والتراث، وفيما يلي عرض للروافد التراثية التي استعان بها كُتاب الأندلس في رسائلهم الاعتذارية. وفيما يلي تفصيل ذلك.

(١) الرافد الديني (القرآن الكريم والحديث النبوي)

يمثل النص الديني بما يتضمنه ويكتنزه من إمكانات فنية هائلة مصدرًا من مصادر الإلهام لدى الكُتاب؛ حيث استمدوا منه ألفاظًا وصورًا ومعاني عبّروا من خلالها عن تجاربهم الخاصة تعبيرًا فنيًا قويّ الحُجّة، عميق المعنى، يبرهن على قدرة الكاتب البيانية، ويبرز ثقافته المتعددة المشارب. قال أبو الفضل الصّوري: "ولا شك في أن كاتب الإنشاء من أحوج الناس إلى الاستشهاد بكلام الله تعالى في أثناء محاوراته وفصول مكاتباته، والتمثّل بنواهيه وأوامره، والتدبر لقوارعه وزواجره، وهو حلية الرسائل وزينة الإنشاءات؛ وهو الذي يشدّ قوى الكلام، ويثبت صحته في الأفهام؛ فمتى خلت منه كانت عاطلة من المحاسن، عارية من الفضائل: لأنه الحجة التي لا تدحض، والحقيقة التي لا ترفض" (١).

(١) صبح الأعشى في صناعة الإنشاء: أحمد بن علي القلقشندي ٨٢١هـ، دار الكتب العلمية، بيروت، ج١ص٩٥

وقد كثر اقتباس الكُتاب من النص القرآني في الرسائل الاعتذارية، حيث جاوز اثني عشر موضعًا، وقد جاءت هذه الشواهد والاقتباسات وثيقة الصلة بموضوع هذه الرسائل ومضمونها، ومن أمثلة ذلك: أن الكاتب أبو بكر بن سعيد البطليوسي يبرر هروبه من السجن بالاحتجاج بالنص القرآني، ويمهد لذلك فقال: "وأنا رعت فارتعت، وقرأت قوله تعالى: ﴿فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ﴾ (الشعراء: ٢١) فاتبعت، وبحق نفرت فنفرت" (١)، ففي اعتذاره عن الهروب من السجن يلتمس لنفسه حُجة من القرآن الكريم بأنه لا عار من الفرار؛ إذ فعل ذلك نبيّ الله موسى –عليه السلام–.

وابن زيدون في اعتذاره لابن جهور عن هروبه من السجن، ذكر أنه ظُلم فلم يستطع على ذلك صبرًا، ففرّ من سجنه محتجًا بالنص القرآني الذي فيه أن الفرار من الظلم من سنن المرسلين، فقال: "وذكرت أن الفرار من الظلم والهرب مما لا يطاق من سنن المرسلين، قال الله عز وجل على لسان موسى عليه السلام ﴿فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ﴾ (الشعراء: ٢١)" (٢).

والكاتب محمد بن عبد الواحد البغدادي كتب معتذرًا إلى المأمون عن خروجه من الأندلس دون إذنه، مبررًا ذلك بأن أحوال الأندلس تغيرت وتبدلت، وأنه خشي وهو مقيم بها أن يحل بها عقاب الله كما نزل بالأمم السابقة، الأمر الذي دفعه إلى الخروج منها، ونراه يبرر فعله ويحتج ويستشهد على ذلك بالقرآن الكريم، فقال عن أهل الأندلس آنذاك: "وضعف حبل الديانة فيهم والإيمان، فجنحوا إلى جحود النعم والكفران... فأبدلهم الله من النور في أحوالهم... وخص أسعارهم بالغلاء، وجمعهم بالفناء، ولفيهم بالتشتت والجلاء، وللخراب ما يعمرون، وللقتل ما يلدون، وللنهب ما يجمعون، ولغيرهم ما يكسبون، ﴿وحاق بهم ما كانوا به

(١) الذخيرة ق٢ ج٢ ص٧٦٣

(٢) الذخيرة ق١ ج١ ص٤١٣

يســـتهزئون﴾ (الزمر: ٤٨) ﴿وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه أليم شديد﴾ (هود: ١٠٢)" (١).

والكاتب محمد بن عبد البر في رسـالته الاعتذارية إلى المعتضـد(٢) ختم رسـالته بقول الله تعالى: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (الذاريات: ٥٥)، وقد أحســن توظيف الآية في ســياق مخاطبة الأمير، فتذكيره المخاطَب بالعفو وقبول الاعتذار ليس من باب إقامة الحجة عليه، ولكنه إشادة بإيمانه؛ إذ لا تنفع التذكرةُ سوى المؤمنين.

وأما الاستشهاد بالحديث النبوي فكان قليلًا جدًا، إذ لم أقف إلا على اقتباسين فقط في الرسـائل الثمانية موضـوع الدراسـة، وذلك في طلب ابن زيدون من ابن جهور العفو وقبول الاعتذار، مبينًا أن هذا من حُسـن العهد، وحق من حقوق الأخوة، فقال: "ولعمرك يا سـيدي إن سـاحة العذر لتضـيق، وما تكاد تتسـع لك في إسـلامك لتلميذك وابن جارك وشـيخك... وقد رويت أن حسن العهد من الإيمان، وسمعت المثل: انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً" (٣).

(١) الذخيرة ق٣ج١ ص ٤١١

(٢) المعتضد بن عباد، أبو عمرو عباد بن إسماعيل بن عباد، صاحب إشبيلية وابن قاضيها، لما توفي أبوه تولى المعتضد بعده، وهو أبو المعتمد، وكان شهماً صارماً وخوطب بأمير المؤمنين، دانت له الملوك، وتشبه بأبي جعفر المنصور، وطالت أيامه إلى أن توفي في شهر رجب سنة أربع وستين وأربعمائة؛ يقال: إن ملك الإفرنج سمَّه في ثياب بعثها إليه. ينظر. فوات الوفيات، ج٢ص١٤٧

(٣) الذخيرة ق١ج١ ص ٤١٣-٤١٤

فقوله: "حسن العهد من الإيمان" (١)، و " انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً(٢) " اقتباس من كلام النبي –صلى الله عليه وسلم–، وقد أجاد ابن زيدون توظيف هذا الاقتباس بما يخدم المعنى ويلبي الغرض من الرسالة.

(٢) الرافد الأدبي (الشعر، والأمثال، والأقوال المأثورة)

أ– الشعر

استحسن الكُتاب والنُّقاد التنويع بين الشعر والنثر، قال أبو هلال العسكري: "إنّ من أكمل الصفات صفات الخطيب والكاتب أن يكونا شاعرين، كما أن من أتمّ صفات الشاعر أن يكون خطيبًا كاتبًا" (٣)، وقال أبو القاسم الكلاعي واصفًا المجيدين من الكُتاب: "وكان المجيد منهم كثيرًا ما يُضمن رسائله أشعاره وأشعار غيره" (٤). وهذا يعني أن قطبي الأدب – الشعر والنثر– يتقارضان، وأن الكُتاب يُضمنون رسائلهم أبياتًا من الشعر تناسب مضمون رسائلهم وحال المخاطَب؛ لإبراز عاطفتهم، وتأكيد أفكارهم، والتدليل على معانيهم، وجذب انتباه المخاطَب ودفع السأم عنه، لاسيما أن كثيرًا من أصحاب الرسائل الاعتذارية كانوا كُتابًا وشعراء في آن واحد، مثل: ابن شهيد وابن زيدون.

---

(١) جزء من حديث عَائِشَةَ، قَالَتْ: كَانَتْ تَأْتِي النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ امْرَأَةٌ فَيُكْرِمُهَا، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، مَنْ هَذِهِ؟ قَالَ: "هَذِهِ كَانَتْ تَأْتِينَا زَمَانَ خَدِيجَةَ، وَإِنَّ حُسْنَ الْعَهْدِ مِنَ الْإِيمَانِ" شعب الإيمان: أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي ت ٤٥٨هـ، تحقيق: عبد العلي عبد الحميد حامد، مكتبة الرشد للنشر والتوزيع بالرياض، الأولى، ١٤٢٣ هـ – ٢٠٠٣ م، رقم (٨٧٠٢)

(٢) جزء من حديث «انْصُرْ أَخَاكَ ظَالِمًا أَوْ مَظْلُومًا»، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، هَذَا نَنْصُرُهُ مَظْلُومًا، فَكَيْفَ نَنْصُرُهُ ظَالِمًا؟ قَالَ: «تَأْخُذُ فَوْقَ يَدَيْهِ». صحيح البخاري: أبو عبدالله محمد بن إسماعيل البخاري، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة، الأولى، ١٤٢٢هـ، (٢٤٤٤)

(٣) كتاب الصناعتين، ج١ص ١٣٩

(٤) إحكام صنعة الكلام، ص٧١

وقد كثر الاستشهاد بالشعر في الرسائل الاعتذارية، حيث بلغ ستة وأربعين شاهدًا، بعضها من منظوم الكُتاب، وبعضها من نظم غيرهم، وهذا واضح في رسائل ابن شهيد وابن زيدون، فابن شهيد في اعتذاره للمؤتمن عن عدم اللحاق به، برّر ذلك بتعلقه الشديد بقرطبة وحبه لها، وهذا ما يمنعه من مفارقتها، واحتج على ذلك بشعرٍ له شبَّه فيه قرطبة بامرأة هام بها وجدًا حُبًّا، فقال: " والذي أشكو منه أغرب الغرائب، وأعجب العجائب، بث شاغل، وبرح قاتل، وصبر يغيض، ودمع يفيض، لعجوز بخراء، سهكةٍ درداء، تدعى قرطبة: (المتقارب)

عجوزٌ لَعَمْرُ الصِّبا فانيه ... لها في الحشا صورةُ الغانيهْ

زَنَتْ بالرجال على سِنّها ... فيا حبذا هي من زانيه " (١)

وتبع ذلك استشهاده بأبيات في حُب الأوطان والتعلق بها لابن الرومي(٢)، ولم يصرح بنسبتها له، قال فيها: (الطويل)

وحبَّب أوطانَ الرجالِ إليهمُ ... مآربُ قضَّاها الشبابُ هنالكا

إذا ذكروا أوطانَهُم ذكَّرتهمُ ... عُهودَ الصبا فيها فحنّوا لذلكا(٣)

وتنوعت طرائق الكُتاب في الاستشهاد بالشعر، فقد يكون الاستشهاد بأبيات، أو ببيت، أو بشطر من بيت، أو تضمين لمعنى البيت، ومن أمثلة ذلك: ما اعتذر به ابن زيدون لابن جهور عن فراره من السجن، حيث قال: " فلم أستطع صبراً، وعلمت أني قد أبليت عذراً... وذكرت أن الفرار من الظلم والهرب مما لا يطاق من سنن المرسلين...

لا عار لا عار في الفرار فقد ... فرَّ نبيُّ الهدى إلى الغار(٤)

(١) الذخيرة ق١ج١ ص٢٠٨، يُنظر الأبيات في ديوان ابن شهيد الأندلسي: جمعه وحققه: يعقوب زكي، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، ص١٦٨

(٢) ديوان ابن الرومي ت٢٨٣هـ: شرح. أحمد حسن بسج، دار الكتب العلمية، بيروت– لبنان، الثالثة، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م، ج٣ص١٤

(٣) الذخيرة ق١ج١ ص٢٠٨

(٤) البيت من (المنسرح) منسوب للحسين بن الحجاج في: الدر الفريد وبيت القصيد، ج١١ص٢١٥

ونظرت في مفارقة الوطن، والبين عن الأحبة، فتبين لي أن إيحاش نفسي، بإيناس أهلي، وقطعها في صلة وطني، غبن في الرأي، وخور في العزم، ووجدت الحر ينام على الثكل، ولا ينام على الذل، وأذنت إلى قولهم: ليس بينك وبين البلاد نسب فخيرها ما حملك.

وإذا نبا بك منزل فتحول(١)

وقال بعض المحدثين:

أَرَى النَّاسَ أُحْدُوْثَةً فَكُوْنَنْ حَدِيْثًا حَسَنْ
كَأَنْ لَمَ يَزَلْ مَا أَتَى وَمَا قَدْ مَضَى لَمْ يَكُنْ
إِذَا وَطَنٌ رَابَنِي فكلُّ مكانٍ وطنْ(٢)

ولم أستغرب أن أسام مثل هذا الخسف في مسقط رأسي، ومعقل تمائمي، وأول أرض مسّ ترابها جلدي، فقديماً ضاع المرء الفاضل في وطنه، وكسد العلق الغبيط في معدته؛ قال بعضهم:

أضيعُ في معشري، وكمْ بلدٍ يُعَدُّ عُودُ الكِباءِ مِنْ حَطَبِهْ(٣)

فاستخرت الله عز وجل، واضح العذر... فهو المؤمل بذلك والمرجو له " (٤).

نلاحظ أن الفقرة السابقة من رسالة ابن زيدون حافلة بالتضمين الشعري، **وأن الكاتب نوَّع في استشهاده**، فاستشهد بمقطوعة، وبيت، وشطر من بيت، وقد أحسن ابن زيدون توظيفها بما يخدم الفكرة ويفي بالغرض من الرسالة، ويعينه على تبرير فعله، حيث احتج ببيت

(١) شطر بيت لعنترة بن شداد من (الكامل). شرح ديوان عنترة: الخطيب التبريزي، ص١١٩، والبيت هو:

اِحذَر مَحَلَّ السَوءِ لا تَحلُل بِهِ وَإِذا نَبا بِكَ مَنزِلٌ فَتَحَوَّلِ

(٢) الأبيات من (مجزوء المتقارب) منسوبة إلى عَبْدُ الصَّمَد بن المعَذَّلِ في: الدر الفريد، ج٣ص٣١٣

(٣) البيت من (المنسرح)، وهو للبحتري. ديوان البحتري: تحقيق. حسين كامل الصيرفي، دار المعارف، مصر، الثالثة، ص٢٤٢، وعود الكباء هو عود البخور.

(٤) الذخيرة ق١ج١ ص٤١٣

الحسين بن الحجاج على أنه لا عار عليه ولا عيب إذا فر، فقد سبقه إلى ذلك بعض الأنبياء، ونراه يعزّي نفسه في رحيله عن بلده وفراقه أهله بشطر بيت لعنترة، ومقطعة لعَبْدُ الصَّمَد بن المعَذَّلِ، وبيت للبحتري فيها أن في الأرض منأى للكريم عن الأذى، وفيها متسع لمن شعر بنبوة أو جفوة في موطنه، وأن عليه أن يتحول من أرضه إلى أخرى إذا لم يهنأ بها ويُكرم، فهو بذلك يتخذ الشاهد الشعري حجة ووسيلة من وسائل الإقناع بصحة رأيه وصواب فعله.

وفي رسالة أبي الفضل بن حسداي التي اعتذر فيها إلى المستعين تضمين جيد لأشطر ومعاني شعرية متقاربة المعنى تخدم الغاية من الرسالة، وتعين الكاتب في إيصال فكرته، فقال: "وقد خاطبت من وثقت بوده، وأنست إلى جده، فإن جاد مولاي بالصفح، وعاد بالخلق السمح، فهو الذي يضطره إليه عالي منصبه، وسامي رتبه، وإن صرم الحبل، وجذم الأصل، فهو حكم الزمان الفاسد، ولا نعمى للشامت الحاسد، فليس بالباقي ولا الخالد، فكل عرض ذاهب مع جسمه الفاني، وذكر الفتى عمره الثاني، وان استحل حرام، من دار أورثها كرام، فالعفاء على الجفن إذا سلم الحسام، وقد صانه وأغمده، من زانه إذا تقلده، وإن تعدى إلى تغيير الرسوم، فربما لبس على الإقواء ثوب النعيم" (١).

هذه الفقرة من رسالة أبي الفضل حافلة بالاستشهاد بالأشطر الشعرية، فقوله: (وذكر الفتى عمره الثاني) شطر بيت للمتنبي يمدح أبا شجاع فاتك، قال فيه(٢): (البسيط)

ذِكرُ الفَتى عُمرُهُ الثاني وَحاجَتُهُ ما قاتَهُ وَفُضولُ العَيشِ أَشغالُ

وقوله: (وَإِنَّما النَّاسُ نُفُوسُ الدّيَار) شطر بيت لعلي بن محمد الإيادي:

بَانُوا فَبانت أسَفًا بَعدَهُم وَإِنَّما النَّاسُ نُفُوسُ الدّيَار(٣)

وقوله: (فالعفاء على الجفن إذا سلم الحسام) مأخوذ من قول أبي العلاء المعري: (الطويل)

(١) الذخيرة، ق٣ج١ ص٤٦١

(٢)ديوان المتنبي، دار بيروت للطباعة والنشر، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م، ص٤٩٠

(٣) الدر الفريد، ج٥ص ١٦٤

وإجْلالُ مَعْناكَ اجتِهادُ مُقَصِّرٍ إذا السّيفُ أوْدى فالعفاءُ على الجَفْنِ(١)

وقوله: (فربما لبسن مع الإقراء ثوب النعيم)، مأخوذ من قول أبي نواس: (الطويل)

تَحافى البِلى عَنهُنَّ حَتّى كَأَنَّما لَبِسنَ عَلى الإِقواءِ ثَوبَ نَعيمِ(٢)

وتضمين الكاتب لهذه الأشطر بهذه الطريقة يعكس ثقافة الكاتب، وحسن توظيفه للشاهد الشعري، بما يفي بالغرض، ويعين على توصيل الفكرة، وإقناع المخاطَب، فضلًا عن القيمة الجمالية الفنية لهذا التضمين.

ب- الأمثال

تتميز الأمثال بقيمتها الأدبية والدلالية الكبيرة، وسرعة شيوعها، وانتشارها بين الناس، فضلًا عما تحمله من معانٍ، وما تثيره من إيحاءات، وما تحمله من تجارب، وما تجسده من خبرات إنسانية، ومن ثمّ شغف الكُتاب بها، وعنوا بها عناية فائقة، وأكثروا من توظيفها في رسائلهم، وزيّنوا بها أساليبهم؛ وذلك لأن "المثل مقرون بالحُجَّة" (٣)، فالاستشهاد به يجعل الأمور مقرونة بذِكر عواقبها، والمقدمات مضمونة إلى نتائجها، لذا قال القلقشندي: "اعلم أن الكاتب يحتاج إلى النظر في كتب الأمثال الواردة عن العرب نثرًا ونظمًا، والنظر في الكتب المصنفة في ذلك" (٤)، "فإذا أكثر صاحب هذه الصناعة من حفظ الأمثال السائغ استعمالها، انقادت إليه معانيها، وسيقت إليه ألفاظها، في وقت الاحتياج إلى نظائرها من الوقائع والأحوال، فأودعها في مكانها، واستشهد بها في موضعها" (٥).

(١) الدر الفريد، ج٤ص٢٣٧

(٢) ديوان أبي نواس برواية الصولي: تحقيق. بهجت عبد الغفور الحديثي، هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث، دار الكتب الوطنية، الإمارات، الأولى، ١٤٣١هـ/٢٠٢١٠م، ص٣٤٥

(٣) إحكام صنعة الكلام للكلاعي، ص٦٢

(٤) صبح الأعشى، ج١ص٣٤٦

(٥) صبح الأعشى، ج١ص٣٥٣-٣٥٤

وتشكل الأمثال في الرسائل الاعتذارية مادة أدبية ثريَّة، حيث بلغت سبعة وخمسين مثلًا، استطاع الكُتاب الأندلسيون معايشة تجربة هذه الأمثال، واتخاذها حجة وبرهانًا. ومن هؤلاء: ابن زيدون، ففي خطابه ابن جهور واعتذاره له اتكأ على الأمثال، واتخذها وسيلة لإقناعه، وإظهار حجته، والوصول إلى غايته، ففي إحدى رسالتيه بيَّن أنه راضٍ بما قُدّر له، صابر على ما نزل به ونُسب إليه، فقال: "وبعد ما مر بي فالقضاء غالب، وما حم واقع، ولا حذر من قدر، وقد سبق السيف العذل، وتقدم من فعلي ما جف به القلم" (١).

في النص السابق اتخذ ابن زيدون من الأمثال حجة قوية ودليلًا ساطعًا على قوله، ومن الأمثال التي ضمنها كلامه: **(لا حذر من قدر)**(٢)، وهذا يعني أن حذره واحتياطه لا يدفع عنه ما قُدِّر له، وإن جهد جهده، ومن ثمَّ عليه التسليم بذلك، وكذلك قوله: **(سبق السيف العزل)**(٣)، هذا مثل يضرب في الأمر الفائت الذي لا يملك الإنسان دفعه.

وفي إحدى رسالتي ابن زيدون أيضًا قال مخاطبًا ابن جهور: "أبدأ من كتابي إليك، بشرح الضرورة الحافزة إلى ما صنعت، مما بلغني أنك صدر اللائمين لي عليه، وأول المسَفِّهين لرأيي فيه، ومن أمثالهم: ويل للشجي من الخلي، وهان على الأملس ما لاقى الدبر" (٤).

في الفقرة السابقة يتكئ ابن زيدون في خطابه ابن جهور على المودة السابقة بينهما، ثم يعاتبه في الانصراف عنه، وعدم الاهتمام به محنته، ويوظف ابن زيدون المثل في ذلك توظيفًا جيدًا، ومن ذلك قوله: (**ويل للشجي من الخلي)**(٥)، وهو مثل يضرب لسوء مشاركة الرجل

(١) الذخيرة ق١ج١ ص ٤١٤

(٢) جمهرة الأمثال: أبو هلال الحسن بن عبد الله العسكري ت نحو ٣٩٥هـ، دار الفكر – بيروت، ج٢ص٢٣٧

(٣) السابق، ج١ص٣٧٧

(٤) الذخيرة ق١ ج١ص٤٠٨

(٥) جمهرة الأمثال، ج٢ص٣٣٨

صاحبه، ومعاشرته له، فيقال: إن الخلي لا يساعد الشجي على ما به ويلومه، وكذلك قوله: **(هان على الأملس ما لاقى الدبر)**(١)، وهو مثل يضرب لقلة اهتمام الرجل بصاحبه.

وفي سياق آخر خاطبه قائلًا: "مع مغالاتي بعلو جوارك، ومنافستي في الحظ من قربك، واعتقادي أن الطمع في غيرك طبع، والغنى من سواك عناء، والبدل منك أعور، والعوض لفاء... وكل الصيد في جوف الفرا، وفي كل شجر نار واستمجد المرخ والعفار... أعيذك ونفسي أن أشيم خلبا، وأستمطر جهاماً، وأكد غير مكدم" (٢).

نلاحظ من الفقرة السابقة أن ابن زيدون حريص على استبقاء مودة ابن جهور، وإظهار ولائه له، وتعلقه به دون غيره، واستعان في سبيل توصيل هذه الرسالة إلى ابن جهور بجملة من الأمثلة تدور حول هذا المعنى، لتقوي حجته وتسعفه في الوصول لغايته وتحقيق رغبته، ومن ذلك قوله: (البدل فيك أعور)، أصله من المثل **(بدل أعور)**(٣)، وهو مثل يضرب للرجل المذموم يخلف الرجلَ المحمود. وقوله: **(كل الصيد في جوف الفرا)**(٤)، وهو مثل يضرب لمن يفضل على أقرانه، وقوله: **(في كل شجر نار واستمجد المرخ والعفار)**(٥)، وهو مثل يضرب في تفضيل الرجال بعضهم على بعض، أي لكل واحد من هؤلاء فضل إلا أن فلانًا من بينهم أفضل. وقوله: **(وأكد غير مكدم)** مأخوذ من المثل: **(كدمت غير مكدم)**(٦)، وهو مثل يضرب للحاجة في غير موضعها أو من غير أهلها، فكأنه يبين للمخاطَب هنا أنه قد تعلق به، ولا يرغب في غيره، ولا فيما عند غيره.

---

(١) جمهرة الأمثال، ج١ص٣٦١

(٢) الذخيرة ق١ج١ص٣٤٣-٣٤٤

(٣) جمهرة الأمثال ج١ص٢٢٩

(٤) جمهرة الأمثال ج٢ص١٦٢

(٥) جمهرة الأمثال ج٢ص٩٢

(٦) جمهرة الأمثال ج٢ص١٤٨

ومما سبق تبين لنا أن الكُتاب الأندلسيين، لاسيما ابن زيدون، وظفوا الأمثال بنصها أو مضمونها توظيفًا جيدًا في خدمة المعنى، وتحقيق الغرض الذي دُبّجت لأجله الرسائل، فضلًا عن حجيتها وقوتها الإقناعية لدى المتلقي.

ج- الأقوال المأثورة

لجأ الكُتاب أحيانًا إلى استدعاء بعض الأقوال المأثورة وتوظيفها في الرسائل النثرية، بما يتناغم ويتناسب مع مضمون الرسالة، وحال المرسِل، ومقام المخاطَب؛ وذلك استمدادًا للنموذج والمثال، واستعراضًا للثقافة العامة، مما يسهم في تقوية موقف الكاتب، ويعينه في تحقيق هدفه، والوصول إلى بغيته وغايته، وهذا كله مرهون ببراعة الكاتب وقدرته في التوفيق بين القول المأثور الذي يستحضره وما يقصده في سياق نصه، ومن أمثلة ذلك في الرسائل الاعتذارية ما جاء في رسالة أبي محمد بن عبد البر التي يعتذر فيها إلى المستعين، حيث خاطبه قائلًا: "وأنا أمد إلى مولاي يد الضراعة... وأذكره كلمة المأمون: لو علم الناس حرصنا على العفو لتوصلوا إلينا بالذنوب؛ وقوله: إني لألتذُّ بالعفو حتى أخشى أن لا أؤجر عليه. وكان الحجاج قد استأصل بالقتل أسرى ابن الأشعث حتى انتهى إلى فتى منهم فقال: أيها الأمير: لئن أسأنا في الذنوب ما أحسنت في العفو، فقال الحجاج: أف لهذه الجيف، أما كان فيهم أحد يحسن مثل هذا! وأمسك عن القتل مع قساوته، وحقنت عنده هذه الكلمة الدم، وتغمدت الإساءة والجرم. ومولاي بصحة فطرته، وتوقد فكرته، وذكاء فهمه، واتساع حلمه، أحد من اتبع كريم الآثار، وشيد مباني الفخار، ولم أذكره على طريق الحجة، لكن على وجه الذكرى التي هي في الأكرمين ناجعة، وفي المؤمنين نافعة، كما قال الجليل، في التنزيل: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (الذاريات ٥٥)" (١).

نلاحظ أن ابن عبد البر هنا يتوسل إلى المستعين؛ كي يعفو عنه ويقبل اعتذاره، ويستحضر الكاتب في هذا السياق ثلاثة أقوال مشهورة مشهودة في التاريخ: اثنين للخليفة

(١) الذخيرة ق٣ ج١ ص٢١٣

العباسي المأمون، والثالث للحجاج بن يوسف الثقفي؛ وذلك في سبيل تحقيق مأربه والوصول إلى غايته، فهو يريد أن يُذّكر المستعين بما فعله سابقوه من الخلفاء والأمراء من العفو وقبول الشفاعة؛ ليسير على خطاهم، وهو من أفضل من اتبع كريم الآثار، ويبدو ذكاء ابن عبد البر واضحًا في خطابه المستعينَ؛ إذ أبدى له أنه أن تذكيره بأقوال هؤلاء ليس إلا لإيمانه، فلا تنفع التذكرة سوى المؤمنين.

ثالثًا: الرافد التاريخي (الأحداث والشخصيات)

لجأ الكتاب إلى استحضار التاريخ بأحداثه التي أخذت شهرتها واستحوذت على حيز كبير من الزمان، وشخصياته التي ارتبطت بأحداث خالدة، واتسمت بسمات محددة، ووصفت بصفات مميزة جعلتها تحرز تحققًا تاريخيًا يسمو بها فوق حدود الزمان وقيود المكان. واستحضار التاريخ واستدعاء أحداثه وشخصياته يمثل رموزًا موحية تدل على سعة اطلاع الكاتب وصلته القوية بتاريخه، وتؤكد قدرته على استيعاب هذه الرموز، ونقلها لواقعه، مما يخلق ترابطًا وشائجيًا على صعيد الدلالة بين الماضي بتجاربه وواقع الكاتب المعيش، فضلًا عما لذلك من انطباعات ذا أثر عميق ودلالة قوية في نفس المتلقي. ومن أمثل ذلك: قول ابن زيدون مخاطبًا ابن جهور: " وليت شعري ما الذنب الذي أذنبت ولم يسعه العفو – ولا أخلو من أن أكون بريئًا، فأين العدل – أو مسيئاً فأين الفضل – وما أراني إلا لو أمرت بالسجود لآدم فأبيت(١)، وعكفت على العجل(٢)، واعتديت في السبت(٣)، وتعاطيت فعقرت(٤)،

(١) القصة في سورة البقرة: آية ٣٤ وما بعدها

(٢) القصة في سورة البقرة: آية ٥٤ وما بعدها

(٣) القصة في سورة الأعراف: آية ١٦٣ وما بعدها

(٤) يشير إلى قصة قوم ثمود مع ناقة صالح: القصة في سورة القمر: آية ٢٩

وشـربت من النهر الذي ابتلى به جنود طالوت(١)، وقدت لأبرهة الفيل(٢)، وعاهدت قريشـاً على ما في الصحيفة(٣)، وتأولت في بيعة العقبة(٤)، ونفرت إلى العير ببدر(٥)، وانخزلت بثلث الناس يوم أحد(٦)، وتخلفت عن صـــلاتي في بني قريظة(٧)، وأنفت من إمارة أســـامة(٨)، وزعمت أن خلافة الصـــديق فلتة(٩)... لكان فيما جرى عليّ ما يحتمل أن يســـمى نكالاً، ويدعى ولو على المجاز عقاباً " (١٠).

---

(١) القصة في سورة البقرة: آية ٢٤٩ وما بعدها

(٢) يُنظر. القصة في: السيرة النبوية لابن هشام: عبد الملك بن هشام ت ٢١٣هـ، تحقيق: مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ الشلبي، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، الثانية، ١٣٧٥هـ / ١٩٥٥ م، ج١ص٥٢

(٣) يُنظر. القصة في: السيرة النبوية لابن هشام: ج١ص٣٥٠

(٤) يُنظر. القصة في: السيرة النبوية لابن هشام، ج١ص٤٢٨

(٥) يقصد أبا سفيان بن حرب، وما حدث في بدر ٢هـ، يُنظر. القصة في: السيرة النبوية لابن هشام، ج٢ص٣٩٥

(٦) يشير إلى موقف المنافقين بزعامة عبد الله بن أبي بن سلول يوم أحد ٣هـ. يُنظر. السيرة النبوية لابن هشام، ج٢ص٦٤

(٧) يقصد أن رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَمَرَ مُؤَذِّنًا، فَأَذَّنَ فِي النَّاسِ: مَنْ كَانَ سَامِعًا مُطِيعًا، فَلَا يُصَلِّيَنَّ الْعَصْرَ إِلَّا بِبَنِي قُرَيْظَةَ، فتخلف البعض عن ذلك. ينظر. السيرة النبوية لابن هشام، ج٢ص٢٣٤

(٨) يقصد أن بعض المهاجرين قالوا لأبي بكر الصديق – رضي الله عنه–: كيف يستعمل هذا الغلام على المهاجرين والأنصار؟!. يُنظر. السيرة النبوية لابن هشام، ج٢ص٦٤١

(٩) قيل: إن الذي قال ذلك هو أمير المؤمنين عمر بن الخطاب –رضي الله عنه–. يُنظر. السيرة النبوية لابن هشام، ج٢ص٦٥٧

(١٠) الذخيرة ق١ج١ص٣٤٠-٣٤١، **وانظر شرحًا مفصلًا لهذه الحادثات التاريخية وغيرها مما لم يسعنا ذِكره في:** الدر المخزون في شرح رسالة ابن زيدون "الرسالة الجدّية" : أبو بكر محمد عليم، مطبعة الشرق، أم درمان–السودان، ١٣٤٥هـ/١٩٢٦م، ص١٠٠-٢٥٤

يسعى ابن زيدون في الفقرة السابقة إلى استمداد عفو ابن جهور؛ ليقبل اعتذاره، ونراه يوظف التاريخ بأحداثه وشخصياته توظيفًا جيدًا، حيث استعرض مجموعة من الذنوب التاريخية المشهورة منسوبة إلى أصحابها في سياق المقارنة بين فعله وأفعالهم، تلك الذنوب التي لو ارتكب ابن زيدون ذنبًا واحدًا منها لكان في ذلك ما يسوغ عقوبته. ولكن ما يفعل ما فعلوه، فهو حقيق بالعفو، وجدير بقبول العذر.

ومما سبق يتضح لنا أن هناك عناصر متشابكة أسهمت في الإبداع الفني للرسائل الاعتذارية تمثلت في: المضمون، والزمن، والمخاطَب، والناثر بما له من ثقافة وعواطف وأفكار، وكان الطابع العام لهذه الرسائل هو سهولة الألفاظ ووضوحها، فضلًا عن البديع اللفظي المنسجم مع طبع الأندلسي وطبيعة الأندلس؛ ليضفوا على رسائلهم إيقاعًا ونغمة زائدة تُكسب العبارة جرسًا موسيقيًا، ترتاح إليه النفس وتطرب له الأذن، كما وظَّف الكُتاب محفوظهم من نصوص القرآن والحديث في تمتين رسائلهم وتزيينها، كما حرصوا على تضمين رسائلهم أبياتًا من الشعر دفعت السأم عن المتلقي من خلال الأثر الناجم عن إيقاعها الموسيقي، وحَلَّ بعضُهم الشعرَ في نثره بأسلوب فني بديع يدعم به آراءه، ويوثق أفكاره، ويقوي معانيه، فضلًا عن شغفهم بالأمثال والحكم على نحو يظهر امتلاكهم لأدوات الكتابة.

الخاتمة

حاول البحث أن يسهم في دراسة رسائل الاعتذار في الأندلس في عصر ملوك الطوائف، والوقوف على جوانب مهمة في: بواعثها، وبنائها، ومضمونها، وخصائصها الفنية الجمالية، وانتهى إلى ما يلي:

– اهتم الكُتاب الأندلسيون بتدبيج الرسائل الاعتذارية، فبرعوا في استهلالها بالنداء، والمديح، والحكمة، ووصف الحال، وما يناسب مقام المخاطَب؛ لتوجيهه إلى ما سيأتي بعد هذا الاستهلال، ويحقق المقصد الذي يسعون إليه، والغاية التي يبتغون الوصول إليها.

– تضمنت رسائل الاعتذار أسباب كتابتها، ودوافع تحريرها، مع حرص الكُتاب على إظهار تعلقهم بالمخاطَب، وولائهم له، وإظهار البراهين الدالة على الولاء الكامل والطاعة التامة له؛ استمدادًا لعطفه واستدرارًا لعفوه، وقبول الاعتذار من المرسِل، وتخلل ذلك محاولة الكُتاب تبرير ما صدر عنهم من أفعال، وإظهار براءتهم، وتطهير ساحتهم مما لُصق بهم ونُسب إليهم.

– ختم الكُتاب الأندلسيون الرسائل الاعتذارية بخاتمة منهجية، وثيقة الصلة بالمقدمة والمضمون، فضمَّنوها زُبدة الأمر الذي يريدون الوصول إليه، والغاية من هذه الرسائل، فختموها بإظهار ولائهم للمخاطَب ومدحه واستعطافه واستمداد عونه وعفوه، وذِكر حالهم ومآلهم؛ كي يرقَّ لهم، فيقبل اعتذارهم، ويعفو عنهم، ويقيل عثراتهم.

– هناك عناصر متشابكة أسهمت في الإبداع اللغوي للخطاب الاعتذاري تمثلت في: المضمون، والزمن، والمخاطَب، والناثر بما له من ثقافة وعواطف وأفكار، وكان الطابع العام لهذه الرسائل هو سهولة الألفاظ ووضوحها، وبعدها عن الوحشية والغرابة والتعقيد، حيث ساهمت هذه الألفاظ مجتمعة ومتآزرة في إقناع المخاطَب والتأثير فيه، وأعانت الكاتب على شرح الغرض من الرسالة، وتبرير موقفه؛ ليحصل على استجابة سريعة من المخاطَب تتمثل في قبول اعتذاره والعفو عنه.

– استعان الكُتابُ بالبديع اللفظي المنسجم مع طبع الأندلسي وطبيعة الأندلس؛ ليضفوا على رسائلهم إيقاعًا ونغمة زائدة تُكسب العبارة جرسًا موسيقيًا، ترتاح إليه النفس وتطرب له الأذن، مما يعين الكاتبَ على التعبير عن عواطفه وعرض فكرته، فضلًا عما يحققه النغم المنبعث من الإيقاع اللفظي من جمالية فنية إيقاعية أخَّاذة تتضافر مع المعنى؛ لتدفع المخاطَب نحو الانسجام مع مضمون الرسالة، واستيعاب فكرتها والغرض منها، مما يكون باعثًا نحو الاستجابة للمرسِل وتحقيق غايته وقبول اعتذاره.

– حلَّق الخيال في اللوحات البيانية البديعة، التي تنهل من الطبيعة الأندلسية حينًا، ومن التراث حينًا آخر عن طريق التشبيهات والاستعارات، التي أخرجت معاني هذه الرسائل في لبوس فني يبرهن على ملكة هؤلاء الكُتاب وقدراتهم الإبداعية في التصوير.

– وظَّف الكُتاب محفوظهم من نصوص القرآن والحديث في تمتين رسائلهم وتزيينها، وغدت استشهاداتهم جزءًا لا يتجزأ من نسيج رسائلهم، فدل ذلك على سعة محفوظهم من القرآن، واستيعابهم له في دعم حججهم، وتأكيد صحة آرائهم، وإضفاء هالة من القدسية على نثرهم. كما حرصوا على تضمين رسائلهم أبياتًا من الشعر دفعت السأم عن المتلقي من خلال الأثر الناجم عن إيقاعها الموسيقي، وحَلَّ بعضُهم الشعرَ في نثره بأسلوب فني بديع يدعم به آراءه، ويوثق أفكاره، ويقوي معانيه، فضلًا عن شغفهم بالأمثال والحكم على نحو يظهر امتلاكهم لأدوات الكتابة.

المصادر والمراجع

١.إحكام صنعة الكلام: أبو القاسم محمد بن عبد الغفور الإشبيلي الكلاعي ق ٦هـ، تحقيق. محمد رضوان الداية، عالم الكتب، بيروت، ١٩٨٥م

٢.أدب الرسائل في الأندلس في القرن الخامس الهجري: فايز عبد النبي القيسي، دار البشير للنشر والتوزيع، الأولى، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م

٣.استراتيجيات الخطاب مقاربة لغوية تداولية: عبد الله بن ظافر الشهري، دار الكتاب الجديد المتحدة، ليبيا، الأولى، ٢٠٠٤م

٤.الاعتذار في الأدب العربي من أيام الجاهلية إلى نهاية القرن الرابع الهجري: أحمد حمود الغثيان، دكتوراه، كلية اللغة العربية، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ١٩٩٠م

٥.الاعتذار في القرآن الكريم دراسة موضوعية: أريج بنت إبراهيم الخميس، ماجستير، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة القصيم، ٢٠١٦م

٦.الأندلس التاريخ والحضارة والمحنة: محمد عبده حتاملة، مطابع الدستور التجارية، عمان- الأردن، ١٤٢٠هـ/٢٠٠م

٧.البرهان في علوم القرآن: بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي ت ٧٩٤هـ، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الأولى، ١٣٧٦ هـ / ١٩٥٧ م، دار إحياء الكتب العربية عيسى البابى الحلبي وشركائه

٨.البيان والتبيين: أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ت ٢٥٥هـ، دار ومكتبة الهلال، بيروت، ١٤٢٣ هـ.

٩.تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن: ابن أبي الإصبع العدواني ت ٦٥٤هـ، تحقيق: حفني محمد شرف، منشورات الجمهورية العربية المتحدة – المجلس الأعلى للشئون الإسلامية – لجنة إحياء التراث الإسلامي

١٠.التحليل البلاغي للخطابات: محمد مشبال، مجلة فصول، مصر، العدد ٩٧، ٢٠١٦م

١١.تحليل الخطاب: هند بنت حامد الحازمي، مجلة القراءة والمعرفة، مصر، العدد ١٨١، نوفمبر ٢٠١٦م

١٢.جمهرة الأمثال: أبو هلال الحسن بن عبد الله العسكري ت نحو ٣٩٥هـ، دار الفكر – بيروت

١٣.حماسة البحتري: أبو عُبَادة الوَليد بن عُبَيد البُحتري ت ٢٨٤ هـ، تحقيق: محمَّد إبراهيم حُوَّر، وأحمد محمد عبيد، هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث، الإمارات، ١٤٢٨ هـ / ٢٠٠٧ م، ص١٠٩.

١٤.الدر الفريد وبيت القصيد: محمد بن أيدمر المستعصمي ت ٧١٠ هـ، تحقيق: كامل سلمان الجبوري، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، الأولى، ١٤٣٦ هـ /٢٠١٥ م

١٥.الدر المخزون في شرح رسالة ابن زيدون "الرسالة الجدّية" : أبو بكر محمد عليم، مطبعة الشرق، أم درمان- السودان، ١٣٤٥هـ/١٩٢٦م.

١٦.دراسة بلاغية في السجع والفاصلة القرآنية: عبد الجواد محمد طبق، دار الأرقم للطباعة والنشر، الأولى، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م

١٧.ديوان ابن الرومي ت٢٨٣هـ: شرح. أحمد حسن بسج، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، الثالثة، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م

١٨.ديوان ابن شهيد الأندلسي: جمعه وحققه: يعقوب زكي، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر، القاهرة.

١٩.ديوان أبي نواس برواية الصولي: تحقيق. بهجت عبد الغفور الحديثي، هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث، دار الكتب الوطنية، الإمارات، الأولى، ١٤٣١هـ/٢٠٢١٠م

٢٠.ديوان البحتري: تحقيق. حسين كامل الصيرفي، دار المعارف، مصر، الثالثة

٢١.ديوان المتنبي، دار بيروت للطباعة والنشر، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م

٢٢.ديوان النابغة الذبياني: تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، مصر، الثانية

٢٣.الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة: أبو الحسن علي بن بسام الشنتريني ت ٥٤٢هـ، تحقيق: إحسان عباس، الدار العربية للكتاب، ليبيا – تونس

٢٤.الرسائل الديوانية بالأندلس في القرن الخامس الهجري: جميلة مفتاح، مجلة آفاق الثقافة والتراث، مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث، سنة٢٢، عدد٨٧، ١٤٣٥هـ/٢٠١٤م

٢٥.السيرة النبوية لابن هشام: عبد الملك بن هشام ت ٢١٣هـ، تحقيق: مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ الشلبي، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، الثانية، ١٣٧٥هـ / ١٩٥٥ م.

٢٦.شرح ديوان أبي تمام: الأعلم الشنتمري ت٤٧٦هـ، تحقيق. إبراهيم نادن، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م

٢٧.شرح ديوان المتنبي: عبد الرحمن البرقوقي، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ١٤٠٧هـ/١٩٨٦م

٢٨.شرح ديوان عنترة: الخطيب التبريزي، دار الكتاب العربي، بيروت، الأولى، ١٤١٢هـ-١٩٩٢م، ص١١٩

٢٩.شعب الإيمان: أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي ت ٤٥٨هـ، تحقيق: عبد العلي عبد الحميد حامد، مكتبة الرشد للنشر والتوزيع بالرياض، الأولى، ١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٣ م.

٣٠.صبح الأعشى في صناعة الإنشاء: أحمد بن علي القلقشندي ٨٢١هـ، دار الكتب العلمية، بيروت

٣١.صحيح البخاري: أبو عبدالله محمد بن إسماعيل البخاري، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة، الأولى، ١٤٢٢هـ.

٣٢.الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز:: يحيى بن حمزة العلويّ ت ٧٤٥هـ، المكتبة العنصرية – بيروت، الأولى، ١٤٢٣ هـ

٣٣.العقد الفريد: ابن عبد ربه الأندلسي ت ٣٢٨هـ، دار الكتب العلمية – بيروت، الأولى، ١٤٠٤ هـ

٣٤.عيون الأخبار: ابن قتيبة الدينوري ت ٢٧٦هـ، دار الكتب العلمية –بيروت، ١٤١٨ هـ

٣٥.فن الجناس "بلاغة- أدب- نقد" : علي الجندي، دار الفكر العربي

٣٦.في تاريخ الأدب الجاهلي: علي الجندي، مكتبة دار التراث، ١٤١٢هـ / ١٩٩١م.

٣٧.قصيدة الاعتذار حتى نهاية القرن الرابع الهجري: محمد محمود على العمرو، دكتوراه، كلية الآداب، جامعة اليرموك، ٢٠٠٤م

٣٨.كتاب التعريفات: علي بن محمد الشريف الجرجاني ت ٨١٦هـ، دار الكتب العلمية بيروت –لبنان، الأولى ١٤٠٣هـ /١٩٨٣م

٣٩.كتاب الصناعتين: أبو هلال الحسن بن عبد الله العسكري ت نحو ٣٩٥هـ، تحقيق: علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العنصرية – بيروت، ١٤١٩ هـ

٤٠.كتاب العفو والاعتذار: أبو الحسن محمد بن عمران العبدري، تحقيق عبد القدوس أبو صالح، دار البشير، عمان، الثانية، ١٤١٣هـ/١٩٩٢م

٤١.الكليات "معجم في المصطلحات والفروق اللغوية" : أيوب بن موسى الكفوي ت ١٠٩٤هـ، تحقيق: عدنان درويش، ومحمد المصري، مؤسسة الرسالة – بيروت

٤٢.المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر: ابن الأثير الكاتب، نصر الله بن محمد بن محمد بن عبد الكريم الشيباني ت ٦٣٧هـ، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية للطباعة والنشر – بيروت، ١٤٢٠هـ

٤٣.مجمع الأمثال: أبو الفضل أحمد بن محمد الميداني ت ٥١٨هـ، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار المعرفة – بيروت، لبنان

٤٤.المخصص: أبو الحسن علي بن إسماعيل بن سيده المرسي ت ٤٥٨هـ، تحقيق: خليل إبراهم جفال، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الأولى، ١٤١٧هـ /١٩٩٦م.

٤٥.المفردات في غريب القرآن: أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهانى ت ٥٠٢هـ، تحقيق: صفوان عدنان الداودي، دار القلم، الدار الشامية – دمشق بيروت، الأولى، ١٤١٢ هـ

٤٦.نهاية الأرب في فنون الأدب: شهاب الدين النويري ت ٧٣٣هـ، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، الأولى، ١٤٢٣ هـ